عبد العزيز جاويش



تأليف : حسن الشيخة

الألف كتاب (٣٥٧

عبد العزيز جاويش

بإشراف إدارة الثقافة العامة
وزارة التربية والتعليم — الإقليم الجنوبي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٣٥٧)

عبد العزيز جاويش

بقلم
حسن الشيخ

الناشر
المؤسسة العربية للطباعة والنشر
احمد عبد الحليم العسكري وشركاه
١٦ — طلعت حرب — القاهرة
ت ٥٧٧٦٧
١٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أكتب الآن عن شخصية كريمة ، أدرك صاحبها النسيان ، وكأن لم يغن بالأمس ، وما أكثر ما ننسى ما هو واجب الذكر ، وما أكثر ما نغفل من لا يستحقون التغافل والتناسى .

الشيخ عبد العزيز جاويش قدره قبلى من هم فى الصف الأول من وزن أقدار الرجال ، أمثال السادة محمد فريد ، وطه حسين ، وعبد الرحمن الرافعى ، ولكنها تقديرات وجيزة ، قيلت فى مناسبات تأليفية ، ثم طويت فى هذه التأليفات ، دون أن نجد من أعطى هذا الرجل حقه من ترجمة مفصلة ، عقيدتى أنها لو كتبت بالدقة التى أحاولها — لنفعت فى كل آفاقها — جيلنا الناشىء فى ثورتنا الموفقة ، التى من أكبر أهدافها تكوين بناء قومى صالح ، على أقوى أساس ، وتهيئة أرض طيبة لأفضل غراس .

أما ما قدره به السادة الذين أسلفت أسماءهم فإننى أذكره بترتيبه الزمنى .

١ — كان الزعيم محمد فريد لا يفتأ يذكر الشيخ بما هو أهل له

فى كل مناسبة ، ومن ذلك قوله فى أحد اجتماعات الجمعية الوطنية للحزب الوطنى (١٠ يناير سنة ١٩١٠) :

« . . . رفعت الدعوى على الشيخ عبد العزيز جاويش بسبب مقالة (ذكرى دنشواى) فحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر . . . ودخل السجن محترما ، وخرج منه أكثر احتراما ، وأعلى مقاما مما دخله ، وقد برهنت الأمة على إكرامها له ، بأن قدمت له وساما . . فى حفلة كبرى . . . »

٢ — تحدث مؤرخ قوميتنا الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعى عن استخلاف الشيخ للزعيم مصطفى كامل بعد موته فى أرفع شأن من شئون هذا الزعيم ، هو اختيار الشيخ رئيسا لتحرير جريدة اللواء — قال :

« فى منتصف سنة ١٩٠٨ — اختار الفقيد (محمد فريد) لرياسة تحرير اللواء المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ، وكان قد تعرف به فى أول مرة فى مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ ، وعرفه بمصطفى كامل سنة ١٩٠٦ بباريس فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية ، فلما رأى (محمد فريد) أن اللواء فى حاجة إلى رئيس تحرير كفء لهذه المهمة عرضها على الشيخ عبدالعزيز جاويش ، وكان يومئذ مفتشا بوزارة المعارف ، فقبلها . . . »

وقال الدكتور طه حسين — هو ومن معه — فى كتابه (فصول مختارة من التاريخ) :

« وكان من زعماء هذه الفترة (فترة ما بين ثورة أحمد عرابى وثورة سنة ١٩١٩ ، محمد عبده ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويش » .

هذه التقديرات الإجمالية من ثلاثة الرجال الأفاضل تعطينا فكرة واضحة عن منزلة الشيخ ، وعن أنه من الزعماء المظلومين فى ذكرياتهم ، وفى الترجمة لهم ، وقد أرضيت ضميرى بأن اخترته مادة لكتابى هذا ، وقد كان أمامى كثيرون ، أترجم لهم وأكتب عنهم على طريقتى ، (ولكل شيخ طريقة) كما يقولون ، ولكن ترجمة هذا الشيخ الجليل تشبثت بخاطرى ، فلم أجد فى الكلام عنها بديلا .

لقد أغفل شأن الشيخ حتى فى الكتب المدرسية الأدبية ، التى وضعت للتلاميذ ، فلم يذكر فيها مثلما ذكر الشيخ على الليثى ، هو ومن هم من مستواه فى الأدب .

كما لم يترجم له فى التراجم الكبريات ، مثلما وضع الدكتور أحمد أمين من تراجم المصلحين — ومثلما كتب الدكتور هيكل فى تراجم شرقية وغربية .

كتبت عن الشيخ مقالات متتابعة فى جريدة (الشعب) لما كنت أكتب بها أدبياتى . وهذه الترجمة التى أكتبها الآن هى تنسيق لهذه المقالات بزيادات كثيرة عليها تناسب كتابا — أو كتيبا — يترجم عن حياة الشيخ الجليل .

والآن أبدأ ، وأرجو الله التوفيق .

الشيخ فى عصره

شارك الشيخ فى كل طيبات عصره ، فإذا تحدثت عن أدب ذلك العصر وجدته فى مقدمة أدبائه ، وإذا تحدثت عن العلم والعلماء رأيته فى الذروة والسنام ، وإذا تحدثت عن التربية والتعليم ألفيته المصلح الكبير ، وإذا ذكرت المضحين فى سبيل الوطنية بأعز ما يملكون وجدته قد ضحى بمنصبه الكبير فى الحكومة ، وإذا تحدثت عن الإرشاد الاجتماعى لوجدته من ذوى الآراء الناضجة فيه ، وإذا تحدثت عن المضطهدين فى أوطانهم ، المغتربين عنها لوجدته — هو وزعيم حزبه محمد فريد — أوضح عنوان لهذا الاضطهاد .

والخلاصة أن الشيخ كان عاملا مشتركا فى كل أمجاد عصره ، وطيبات وقته . وقد جرت عادة المترجمين أن يتحدثوا — مقدما — عن عصور من يترجمون لهم ، ملمين بحالات العصر كله فى الناحية التى مهر فيها المترجم له ، ليلقوا ضوءاً هو ضوء الافتتاح على الشخصيات التى يتحدثون عنها .

هذه هى العادة التى أعدها عادة طيبة ، ولكن ماذا أصنع والشيخ جاويش قد ضرب فى كل حالات عصره بسهم صائب ، فكيف أتحدث عن عصر هو فيه المعلم والمربى ، وهو فيه العالم المثقف ، وهو فيه المصلح الاجتماعى ، وهو فيه الأديب المصقع . وهو فيه الكاتب

السياسى الثائر ، وهو فيه المسجون المضطهد الذى أبعد عن بلاده أحد عشر عاما ، وهو فيه المصلح للتعليم بعد عودته — بعد أن وكل إليه فى آخر مراحل حياته إصلاح التعليم الأولى وهو أساس محو الأمية .

إننى لو أردت الحديث عن عصر الشيخ بالنسبة لمراحل الشيخ كلها التى تحدد لى آفاق القول — لو أردت ذلك لتحدثت عن عصره فى التعليم والتربية ، وفى العلم والثقافة ، وفى الأدب والأدباء ، وفى السياسة والسياسيين وفى اضطهاد الأحرار وإبعادهم عن بلادهم ، وفى الإصلاح والمصلحين .

فهل هذا مقبول (شكلا وموضوعا) ؟

سأتحدث عن الشيخ فى كل اتجاهاته فى مواضعها ، بأن أذكر إجمالا حالة عصره عند الكلام على كل مرحلة من مراحل حياته ، وبهذا أنجو بنفسى من عبث القول الذى أقع فيه حتما لو أننى جعلت مقدمة قولى — كلاما شاملا لكل حالات العصر الذى اشترك فيها الشيخ ، إن ذلك لو وقع لا يكون (سلطة علمية) كسلطة الدكتور أحمد زكى ، وإنما يكون (سلطة) لا تؤكل .

* * *

الآن أرتب — حسب رأيى — مراحل ترجمة الشيخ ، محاولا الإلمام بها على تشعبها ، وعلى تعدد آفاقها ، وعلى بعد ما بينها من أسباب ودوافع .

ولولا أن دوافعي النفسية وقفت عند ترجمة الشيخ ثم لم تتحول، لاخترت شخصية غيرها ، تكون حياتها إما فى اتجاه واحد ، وإما فى اتجاهات متقاربة ، لا يبتعد بعضها عن بعض ابتعادا كبيرا ، كما هو الواقع فى حياة شيخنا الجليل .

أما سبيلي فى ذلك فهو أن أجمع أجزاء كل أصل من أصول ترجمته بعضها إلى بعض ، دون أن أتقيد بالفواصل الزمنية التى وقفت كثيرا بين هذه الأجزاء لكثير من أصول حياة شيخنا الكبير .

أخلاق الشيخ

لعل من الخير — فى رأيى — أن أبدأ ترجمة الشيخ بالتحدث عن أخلاقه ، ليعرف المطلع ما هى الشخصية الخلقية التى أكتب ترجمة صاحبها ، ليزداد معى علما بأن الشيخ فى تكوينه الخلقى من أندر الشخصيات الفاضلة ، ومن أظهر من خدموا الإنسانية بدوافع غرائزهم وسجاياهم .

يعرف علماء النفس الخلق بأنه حالة للنفس تصدر عنها الأعمال والأقوال بلا روية ولا تكلف . أما عدم التكلف فى الأعمال والأقوال — فواضح ، وأما عدم الروية فالمقصود به أن صاحب الخلق — خيرا كان أم شرا — يندفع إليه بمجرد وجود المقتضى له ، فالكريم — مثلا — إذا رأى محتاجا فإنه لا يتردد فى أن يعطيه أولا يعطيه ، إنه يعطيه ، بلا مهل إذا كان قادرا على الإعطاء . وكذلك البخيل ، إنه مهما رأى من صور الاحتياجات والضرورات والفقر ، فلا يجد دافعا يدفعه إلى تغيير خلق البخل فيه . بل إن طلب المحتاج منه إحسانا ليحملنه من فوره على رد السائل خائبا .

* * *

تعرفت حوالى سنة ١٩٢٥ بصاحب شخصية كريمة ، هو الدكتور أحمد فؤاد الطبيب المعروف ، وكان قد فر وهو طالب بكلية الطب

فيمن فروا من مصر إلى أوربا من رجال الحزب الوطنى لما اشتد الإيذاء بهذا الحزب بعد مايسمونه (سياسة الوفاق) بين الخديوى عباس وبين الانجليز. وقد أتم الرجل تعليمه الطبي بألمانيا ، ثم انتقل إلى تركيا فاختارته حكومتها (وقتئذ) مديرا للأمن العام لما كان له من مواهب عقلية نادرة المثال .

حدثنى هذا الرجل عن أخلاق المصريين الذين هاجروا إلى أوربا ومنهم الشيخ عبد العزيز جاويش ، فقد اتصل بهم جميعا فى تركيا اتصالا عمليا وثيق العرى ، فلم أسمع منه ثناء مثلما سمعته عن الشيخ جاويش ، ونبل أخلاقه ، صدق فى كل أعماله وأقواله ولو بلغ به إلى حد الضرر ، وصراحة وجرأة فى الحق دون مواربة أو زلفى إلى أحد ، وقوة إرادة لاتلين أمام أكبر العوائق والمعطلات ، وإيثار على نفسه لمن يستحق فى نظره الإيثار ولو كان به خصاصة .

كما حدثنا عنه زميله أستاذنا فى دار العلوم الشيخ مصطفى عنانى بأنه كان وهو طالب — من أرفع الطلبة أخلاقا ، ولذلك اختير للبعثة التى تبعثها وزارة المعارف إلى انكلترا ، فكان من خير العناوين التى دلت على أخلاق الطلبة المصريين هناك ، بعث حميدا ورجع حميدا ، ولذلك كررت الوزارة اختياره مبعوثا إلى بلاد الإنجليز على صورة غير الصور الأولى ، هى أنها أرسلته فى المرة الثانية ليملأ كرسي اللغة العربية فى جامعة (اكسفورد) .

هذا بعض ماسمعته ممن خالطوا الشيخ وعرفوا كنه أخلاقه .
أما أنا فلى فى هذه المعرفة الخلقية قصة أرويها .

كنا ونحن طلبة بدار العلوم ، حوالى ابتداء العشرة الثانية من هذا القرن العشرين — نقرأ مقالات الشيخ فى مجلة الهداية وفى صحف الحزب الوطنى ، فنعجب بها أكبر الإعجاب ، وكان بعضنا — وأنا واحد منهم — يكادون يحفظونها غيبا ، ولهذا الإعجاب بآثاره القلمية عرفنا دار الحزب الوطنى بشارع الصنافيرى ، وكنا نتردد عليها لنسمع الشيخ إذا خطب الحاضرين ، أو تحدث إلى الزائرين .

كان الشيخ صريحا غاية الصراحة فى كل آرائه ، ومنها آراؤه الوطنية ، لم يكن يعرف لغة اللف والدوران والمواربة ، ولكن الذى كان يكنه فؤاده هو الذى يكتبه صريحا بقلمه أو يلقيه بلسانه ولذلك كان السيد على يوسف صاحب (المؤيد) يصف الشيخ من هذه الناحية بأنه (ناعم الأظفار) فى أسلوبه السياسى ، أى أنه لا يعرف غير الجهر بما يعتقددون أن يحاول مواربة فيه أو مداراة .

جرى الشيخ فى كل حياته السياسية على هذا المنوال ، ولذلك كثرت محاكماته ، وكثرت سكناه السجون ، لا يأسره مال أو مرتب مهما كبر ، ولقد فارق الغازى مصطفى كمال الذى عينه فى منصب دينى كبير فى تركيا — لما أراد أن يفرض عليه رأيا معينا فى الخلافة لم يقبله الشيخ . فارقه مضحياً بمرتبه الكبير الذى هو بحاجة إلى أقل منه

كما فارق من قبل مرتبه الرتيب وهو المفتش الأول بوزارة المعارف .
فارقه إلى العمل فى الصحافة الوطنية خليفة لمصطفى كامل ، وهو لايدرى بعد ذلك ماذا يكون مصير عيشه ، ومصير أولاده .

بلغت به كرامته ألا يتلوث فى طريقه السياسى ، مع شدة حاجته فقد أبى أن يتصل بالخديوى عباس فى وقت كانت فيه القربى إلى هذا الحاكم مبلغة صاحبها الجاه العريض ووفرة الرزق . وقد كتب هو فى هذا الشأن فى خطاب أرسله إلى الحكومة المصرية ، ستعلم نبأه بعد حين فى موضعه .

قال فى هذا الخطاب :

« . . . فأما الدور الأول إذ كان ملك مصر يأمر وينهى ، ويمنع ويعطى ، تعنو له الوجوه ، وتطأطىء له الرءوس ، دور الجلال والعظموت ، والصولة والجبروت ، فهل اجتذبتنى إليه رغبة ، أوهالتنى منه رهبة ؟ لقد والله تذرّع إلى بكل الوسائل ، واستدرجنى إلى لقائه بصنوف القربات ، فهل أفلح له سعى ، أو تحقق له أمل ؟ » .

أما ظرفه وخفة روحه والرغبة فى مجالسته والاستماع إلى حديثه — فقد حدثنى عنها محام كبير من الحزب الوطنى — وأرجو له طول السلامة — بأنه كان فى أحاديثه وسمره ومجالسته — آية الآيات ، لا تمله ولا تعافه ، تقضى معه الساعات وكأنها دقائق .

هذه خلاصة عن أخلاق الشيخ ، صدرت بها الحديث عنه لنعرف لمن تكتب هذه الترجمة من الناحية الموجهة فى الحياة ، الناحية الخلقية ، والناس كما يقولون — مسيرون بأخلاقهم .

الشيخ المربى المدرس

ليس فى التعبير بالمربى والمدرس — ترادف كما قد يبدو ، فالتربية غير التعليم ، التربية تتعلق بالنفس وكمالاتها ، والتعليم يتعلق بالعلم ومدراسته وتحصيله ، والتحدث عنهما متلازم غالبا إذا كان الحديث عمن يحترفون التعليم .

* * *

طلب الشيخ العلم فى الأزهر سنة ١٨٩٢ ثم تخرج فى دار العلوم سنة ١٨٩٧ . ثم عين مدرسا للغة العربية بمدرسة الزراعة . وكان من سنن وزارة المعارف أن ترسل من خريجى دار العلوم بعثة سنوية إلى انجلترا . وغنى عن البيان أن الإختيار كان لا يقع إلا على أفضل الخريجين علما وخلقا . وعلى هذا الأساس اختير الشيخ هو وزميل له (محمد عاطف بركات) الذى كان وكيلا لوزارة المعارف وبعد رجوع الشيخ من انجلترا سنة ١٩٠١ عين مفتشا على مدارس الحكومة فلم يكن همه إحصاء الأغلاط على المدرسين وتدوينها فى تقاريره فحسب . . كما هو الشأن فى بعض المفتشين . بل كان همه الأول الذى دفعه إليه إخلاصه فى عمله — أن يصلح من حرفة التعليم التى كانت فى وقته تسير على طريق التلقين وتحفيظ الدروس واستظهارها . ولا أدلل على ذلك بأكثر من أنه ألف للمدرسين

كتابا قيما طبع سنة ١٩٠٣ لم يسبقه إليه أحد فى موضوعه سماه (غنية المؤدبين) . ولما لم يكن من قصد الشيخ أن يرشد المدرسين إلى أقوم السبل فى الناحية العلمية ليس غير فيسمى كتابه بهذا المقتضى (غنية المدرسين) . أقول لما لم يكن قصده هو الإصلاح فى هذا الحيز الضيق فقد سماه غنية المؤدبين « ليشمل أرشاده الناحيتين ناحية التربية وناحية التعليم » . وفرق كبير بين التربية وبين التعليم كما أسلفت . ولذلك جاء كتاب الشيخ فيما قصده جامعا الحسنيين وقد أوضح أوليته والدواعى إلى تأليفه فى مقدمته بقوله .

(وبعد فلما كانت اللغة العربية لم يوضع فيها فى التربية وأساليبها شيء على النسق الحديث وقد اشتدت حاجة المؤدبين فى هذا الزمن إلى كتاب يهتدون به فى هذا الفن — أردت أجابة لمطالب هذه الحاجة الشديدة أن أضع عجالة صغيرة تكون بحول الله مرجعا لمدرسى فن التربية .. وجمعت فى هذه العجالة ما تدعو الحاجة إليه فى تعليم الناشئة) .

وبهذا الكتاب التربوى كان الشيخ أسبق من عالجوا أمراض حرفة التعليم فى وقته بما وضع فى كتابه هذا من أساليب جديدة هى أساليب طريقة الاستنتاج بالمحاورة وهى أمتن الطرق فى تسهيل التعليم وتيسيره على الناشئين ، وأذكر أسطرا من هذا الكتاب فى باب إرشاد المدرسين :

(أن يكون المعلمون فى سيرهم وأخلاقهم مثالا حسنا من جميع

الوجوه لتلاميذهم ولمن جاورهم من الناس . وعليهم ألا يقتصروا على تعليم تلامذتهم المواد المقررة فى فهرس مواد التعليم ، بل يجتهدوا فى تعويدهم المحافظة على الأوقات وعلى الجد والطاعة والتأمل فى الأمور والذوق فى المعاملة والشفقة بالناس) .

وأعتقد أن هذا الكتاب كأن فتحا جديدا فى بابه وأغراضه وقد طبع فى سنة ١٩٠٣ ثم توالت بعده الكتب فى هذا المجال حتى صار التأليف فى هذا النوع مما يلزم به القادرون أنفسهم من أفاضل المعلمين إلى يومنا .

* * *

وكذلك ألف الشيخ كتابا آخر فى اتجاه آخر هو (مرشد المترجم) . ولمن ألف هذا الكتاب ؟ . أنه ألفه لخريجى مدرستى المعلمين العليا والوسطى وهم الذين يقصر عليهم تعليم الترجمة . ولى أن استنتج من تأليف هذا المؤلف أن الشيخ كان على درجة طيبة فى التمكن من اللغة الانجليزية . أما قيمة هذا الكتاب فقد تستفاد من أنى كنت أتحدث منذ سبعة عشر عاما مع مدرس فاضل تخرج فى مدرسة المعلمين العليا فجاء ذكر هذا الكتاب فأخبرنى أنه استفاد منه فائدة كبرى بعد تخرجه ، وأكد لى أنه استفاد منه هذه الفائدة لما عين مدرسا للترجمة سنة ١٩٠٩ ، وأن الشيخ قد سد بكتابه هذا فراغا كان ملحوظا فى تدريس الترجمة .

وبينما الشيخ يقوم بإصلاحاته فى التربية والتعليم بمصر ، بعد أن

عاد من انجلترا سنة ١٩٠١ ، إذ بوزارة المعارف تختاره لكرسى تدريس اللغة العربية بجامعة (أكسفورد) ، وهذا اختيار يدل على الكثير من تقدير الشيخ فى علمه وفضله ، وخلقه الكريم ، وأنه كان مقدرا حق قدره منذ أن بدأ حياته العلمية .

* * *

لقد كان الشيخ فى وزارة المعارف — معلما فمفتشا — ليس له من الأمر شيء فى ترقية التعليم لأن الأمر بيد الانجليز ، فلم يكن فى المركز الذى يجعله مصلحا للمناهج كما كان مصلحا لطرق التعليم بما قدمت له من مؤلفات وهو الأمر الذى أمكنه بمقتضى حدود وظائفه أن يصلحه ، ولكنه لما ترك الحكومة ووظائفها — كما ستعرف — صار حراً فى أفكاره طليقا من كل قيد فيما يصفه كعلاج لسقم التعليم وأمراضه بما صنعه المحتلون الذين وضعوا مناهجه فى دائرة ضيقة تخرج موظفين للدولة التى كانوا سادتها وكبراءها .

ظهر اتجاه الشيخ هذا فى اصلاح التعليم كأداة من أقوى أدوات النهوض الشعبى بما كان منه لما انعقد المؤتمر السنوى للحزب الوطنى يوم ٧ من يناير سنة ١٩١٠ ، وكان هذا المؤتمر يتألف من الجمعية العمومية لهذا الحزب ... يحمل فيه خطباؤه على الاحتلال حملات شعواء إلى أغراض أخرى تلتف حول فكرة القومية ومقوماتها فاختار الشيخ نصيبه فى هذا المؤتمر الحديث عن البعثات العلمية

ورياض الاطفال (محمد فريد ص ١٣٩ للأستاذ عبد الرحمن الرافعي).

وكذلك وضح فيه هذا الاتجاه لما أسس مدرسة ليلية سماها (الإعدادية الليلية) يتعلم فيها الأزهريون اللغة الفرنسية . . . ومن خطبة له في ذلك ـ . . . فأنشأت لذلك مدرسة ليلية فأمها في أول الأمر الكثيرون من الأزهريين بين علماء وطلبة حتى بلغ عددهم نحو أربعمائة طالب (المجلد الثاني من مجلة الهداية ص ١١٥).. وقد اختار من هؤلاء الطلبة بعثة إلى فرنسا ، وقد قال في ذلك أيضا ، : سافر أولئك الطلبة النجباء إلى أوربا ، وسافرنا معهم إذ أنسنا منهم الحاجة إلى معين قد خبر آداب القوم وعاداتهم ثم غدونا بهم إلى مدرسة المعلمين فتبوأنا لهم بها المساكن . . . ولبثنا في مدينة (مونبلييه) أسبوعا نزورهم فيه كل يوم ، هنا لك ودعناهم قافلين لا نرجو لهم إلا الخير والتوفيق حتى يؤدوا إلى الأمة ماتؤمل فيهم وترجو منهم ـ (المرجع السابق ص ١٤٤).

وكذلك عقد هو ومعاونوه مؤتمرا كبيرا في مدينة المنصورة في فبراير سنة ١٩١١ ، وألقى فيه خطبة جامعة في أصلاح التربية والتعليم جمع فيها بين آراء الأستاذ الإمام محمد عبده وبين آرائه هو وآراء كبار المؤلفين في أصلاح التعليم . وعندي أن ترجمة الشيخ تكون ناقصة إذا أنا لم أنشر هذه الخطبة كلها مع بعض إيجاز لا يخل أطلاقا بشيء من أغراضها . وإذا لم أثبت نصوص الشيخ في آرائه الحرة في أهم مقومات الأمم وهو العلم والتعليم وأنا أترجمه فبأي شيء

آخر أظهر شخصيته وآراءه فى تاريخ التطور العلمى ؟ إننى أنشرها فى إعجاب بهذا المشرع العلمى الكبير فقد وضع أسسا للتعليم لم تكن معروفة . كما نقل لنا فيها آراء الامام محمد عبده ، وإثباتها فيه فائدة مزدوجة .

وقد أكد لى كبير بوزارة التربية أن أكثر تشريعات الشيخ فى خطبته هذه — من أقوى الأسس التى تطور بها التعليم فى مصر . قال الشيخ .

أيها السادة :

إننى لا أريد أن أقف موقف البدوى بأطلال الديار يناجى صامتها ، ويبكى من ذكرى أحبابه النازحين عنها ، فإن الأمة اليوم شديدة الحاجة إلى شرح الوسائل التى تؤدى الآخذين بها إلى غايتها المعنية وضالتها المنشودة .

لهذا لا أحب أن أخوض فى وصف ما نحن عليه اليوم من الانحطاط فى الأخلاق ، وما آل أمرنا إليه من فرط الجهل بالعلوم والفنون والحرف التى هى الوسيلة الوحيدة لمن شاء أن يعيش فى بلاده حراً مستقلا سعيد الأوقات هنى البال على الكلمة مهيب الجناب .

ولقد عرفنا من تاريخ المحتلين أنهم ما دخلوا بلد إلا وبدأو بتجريد أصحابه من قوة القوى وعلة العلل وهو العلم ولو أن الأمة عقلت فى السنين الخالية ما أريد بها من الأذى وما أعد لها من

صنوف المكائد الخفية لما بلغ بها الخذر والفتور هذا الحد الذى أصبحنا جميعا نشكوه ، ونحذر مابعده من منازل التقهقر أو التدهور ، نعم استيقظ المرحوم الشيخ محمد عبده لبوادر تلك المكائد ، فلقد عثرنا له على بجمل آرائه فيما يجب أن تكون عليه التربية بمصر ، قرأنا ماجاءنا به من وصف ما كانت عليه التربية هنا منذ عدة أعوام فوجدناه كأنما يصف ما عليه نحن اليوم فلنقتطف منها ما يأتى :

المدارس الأميرية

١ — فى زمن إسماعيل باشا كثرت رغبة الناس فى المدارس ولكن من الأعيان الذين يطلبون لأولادهم مساند فى الحكومة يحتاج فى الوصول إليها إلى بعض الفنون . ومن الفقراء الذين لا يجدون مايقتات به أبناؤهم فيرسلونهم إلى المدارس ليستريحوا من نفقتهم . ولم يكن القصد من جمع تلك الأموال إلا أن يتعلم التلميذ ما يؤهله للقيام بعمل ما من أعمال الحكومة ، أو بعبارة أخرى ليكون فى يده شهادة تبيح له أن يشغل كرسيا من كراسى أقلام الدواوين .

أما تكوينه بالتعليم والتربية رجلا صالحا فى نفسه يحسن القيام بالعمل الذى يفوض إليه فى الحكومة أو فى غيرها فذلك لم يخالط عقول المعلمين ، ولا من ولاهم أمر التعليم ، فسرى ذلك من السابقين إلى اللاحقين حتى اليوم .

ولو كشفنا عن أذهانهم لم نجد فيها غاية لتعلمهم سوى أن يعيشوا

كما عاش غيرهم على أى صفات كانوا عليها ، ولو بحثنا أذهان المعلمين لم نجد فيها من المقاصد سوى أنهم يلقنون ما يجدونه فى الكتب المقررة للتلاميذ ويطالبونهم بحفظه وفهم عبارته ليعيدوا يوم الامتحان تلاوة ما ألقى إليهم حتى تتم مدتهم فى المدرسة ، ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم هل هو فى صالح أو فاسد ، ولا مطامح أنظارهم هل إلى نافع أو ضار . وذلك رسم يؤتيه المعلمون ليأخذوا مرتباتهم الشهرية لا غير ولهذا لا يكون تلامذتها فى آخر الأمر إلا صناعا أو ناطقين ببعض الأسئلة ، ولا ثقة فى الأغلب بشىء من عقولهم ولا أخلاقهم إلا من كانت له فطرة سليمة أو له موهبة طبيعية فأولئك تؤدبهم الأيام وتهذبهم التجارب ، وعلى مثل ذلك كانت مكاتب الأوقاف ولا تزال ، فإن استمر السير على الطريقة المعروفة الآن كانت النتيجة دائما كما بيناه فلا يؤول ذلك بالمصريين إلى أن يكونوا رعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس أو آلة لصانع .

المدارس الأجنبية

٢ — وأما المدارس الأجنبية على تنوعها فاختلاف المذاهب بين المعلمين والمتعلمين فى الأغلب يضعف أثر تلك المدارس من التربية العمومية ، فقليل من المصريين من يرغب فى تعليم أولاده فيها ، ومن أرسل بولده إليها داوم نصيحته بعدم الالتفات إلى ما يقوله المعلمون فيها حفظا لاعتقاده ، ثم ذلك يحدث من الاضطراب فى

طبيعة الفكر والتزلزل فى الأخلاق مايكون ضرره أكثر من نفعه ، وقد غلط من زعم أن لتلك المدارس الأجنبية أثرا سياسيا أو أدبيا فى مصر ، بل قد أحدثت بعض النفرة فى قلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأمهم ، ولذلك تاريخ فى البلاد معروف ، فهى ضارة بالألفة مبعدة للمحبة رغما عما يزعمه أربابها مما يخالف ذلك فلا يصح الاكتفاء بها فى التربية عن المدارس الأهلية على اختلافها .

المكاتب الرسمية الابتدائية

٣ — تلاميذ هذه المكاتب لا يزالون الى الآن من الأطفال الذين يقصد كفلاؤهم بتعليمهم التوصل بهم إلى خدمة الحكومة ، سواء نالوا ما قصدوا أم لا ، إلا أنهم فى الغالب لا يستطيعون أن يذهبوا بهم إلى نهاية التعليم المعد لذلك ، فيرجع الولد إلى أبيه أو من يقوم مقامه بعد نهاية المكتب عارفا ببعض مبادئ العلوم التى لايجد لها موضعا تستعمل فيه ، فلا يلبث أن ينساها فيضيع الزمن الذى شغله بالتحصيل بلا فائدة، ثم أنه يعود بأخلاق أشد فسادا من أخلاق الذين بقوا على الفطرة لم يمسهم التعليم ، ويجد فى نفسه نفرة وعجزا عن العمل فيما كان يعمل والده وأهله من قبل ، فيقضى عمره فى البطالة أو ما يقرب منها فتزداد أخلاقه فسادا وأفكاره اختلالا ويقف نفسه عبادة الأوهام وخدمة الدسائس التى تنبه إلى طلب ما يغير الحالة من نفسه بلا تعقل ، فيكون زيادة فى أمراض البلاد بدل أن يكون عضوا نافعا لها .

فأول مايجب لاصلاح هذه المكاتب ووضعها على أساس يفيد العامة أن يراعى فى البروجرام إدخال مبادئ العلوم فى وجهها العملى، مطبقة على المعروف فى المعاملات التجارية وحساب الصيارفة الأميريين وغيرهم، فيتعلمون طريقة وضع المدفوع من الأموال فى الأوراق والدفاتر، وطرق التحصيل لأموال الحكومة ونحو ذلك ويدخل فيها الأوزان والمكاييل. وإن كانت مبادئ هندسية فليدخل فيها شيء من المساحة على الطريقة المعروفة فى البلاد أو على أفضل منها وما يؤخذ من قواعد اللغة العربية يكون مصحوبا بالعمل فى المكاتبات العادية والمشارطات المتداولة بين الأهالى، حتى إذا انفصل من المكتب يكون عنده ما يحتاج إليه شخصه أو عائلته أو أقاربه وأهل بلده، فلا ينقطع عن العمل به لكثرة ما يرد عليه منه، ثم يضم إلى ذلك تعويده بعض الأعمال الزراعية أو الصناعية فى أوقات الرياضة، أو يخصص لذلك يوم فى الأسبوع ليعلم كفلاء التلاميذ أن للتعليم غاية سوى خدمة الحكومة، وأنهم إذا لم ينالوا الخدمة فإن لهم شأنا سوى البطالة والتفرغ للأوهام الرديئة ثم يضاف إلى البروجرام مبادئ العقائد الدينية على الأصل الصالح وأصول الآداب الدينية على ما يجمع الألفة ويصرف وجه المصلحة فى المعاملة والمخالطة وشيء من تاريخ البلاد وما كانت تعانيه فى سابق زمنها، وشيء من القواعد العامة للنظام الذى هم فيه ليعلم التلميذ أنه من أى جنس

وفى أى شكل من أشكال الحكومة ، فيتعلم الخضوع والانقطاع لكل حسن فيما يصدر منه ، ثم يكون أهم العناية بحمل التلاميذ على العمل بما يعلمونه من الآداب وتشديد المراقبة عليهم فى ذلك وتوضع لهذا لائحة مخصوصة يحدد فيها البروجرام اللازم للمكاتب الابتدائية وطريق التعليم ، ويبين فيها المسلك الذى يتخذه المربى المفوض إليه مراقبة أخلاق التلاميذ وملاحظة أعمالهم ، فإذا أتم التلميذ مدة المكتب الابتدائى ولم يتيسر له أن ينتهى إلى غاية التعليم رجع إليه بشىء نافع ، ونمت فيه الأخلاق الصالحة والأفكار الحسنة ، وانطبع قلبه على الخير والسلامة وكانت له بصيرة فى وجوه المعاملة مع من يشترك معهم فى المصلحة ونبت فى قلبه احترام النظام الذى يضبط مصلحته ومصلحة بنى وطنه ونشأ على محبة العمل والرغبة فيه ، فلا يكون إلى فؤاده سبيل للوساوس ولا منفذ للدسائس .

٤ — وإنى لا أزال أكرر أن غارس هذا الغرس يجنى ثمرته الطيبة ، وأن فوائده ربما نقلت إلى أقطار أخر فعادت بجزيل الخير على من نماه . وفى الزمن القريب يبدو صلاحه لصاحب السلطان والمحكومين له ويسهل تقرير أمره فيمن صلحوا بإصلاحه على قاعدة المحبة والألفة لا على طائشة الإخافة والرهبة .

ويكون بذلك قد كون لنفسه شعبا جديدا يعينه فى الشدة ، وينصره فى الفتنة ويعضده فى ساحة المحنة ، ويمحو من نفسه خيال التعلق بغيره ، وتزول من طريقه عقبات تعصب الجاهلية وحمى

الحماقة اللابسة ثوب الحمية الدينية . وفى ظنى أن من عارض هذا المشروع فقد عادى سلطته وعرض نفسه لغير الزمان وسياسته ولنفوذ شياطين الفتن من مقاوميه . والله ولى الأمر وبيده كل شىء يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

هذه ملاحظات الأستاذ رحمه الله فى التربية هنا فى ذلك العهد ، وما أشد مطابقتها وملاءمتها لما نحن عليه اليوم من الحالة التى أصبحت مبعث آلامنا ومجلبة قلقنا واضطرابنا . سمعتم ما كتبه فى تلك المعاهد للذكور مما هاج بالطبع آلامكم ، ولو أنه كان اليوم حيا وتناول القلم ليكتب فى مدارس البنات ونظامها وبرامجها وكيف يعبث بها وتضيع الأموال الطائلة على غير طائل بين جدرانها لترضيتم عن تلك المدارس التى أفاض فى بيان قصورها ومقت نظامها وتدبيرها وحقر من غايتها وزهيد مآربها .

أيها السادة : طالما التبس الأمر على الناس فظنوا أن العلم هو التربية ، وأن المدارس ما أقيمت إلا ليلقن فيها النشء مبادىء العلوم وقشورها ولهذا لم يدركوا تلك الحقيقة التى إن لم يرجعوا إليها ويتدبروها فليسقطن فى هاوية لا مخرج لهم منها .

تلك الحقيقة هى أن هناك بونا شاسعا بين التربية والتعليم ، ولقد جئنا على كلمة فى هذا المعنى فى كتابنا « غنية المؤدبين » لا بأس أن نوردها هنا وذلك نصها .

« ليس المراد من تربية الأشياء وتقويتها أن يزاد فى مقدار حجمها ، بل المراد تهيئتها وتمكينها من القيام بأعمالها وتأدية وظائفها بما ينبغى من الحذق والاتقان والسرعة ، وعلى ذلك يكون المراد من تربية العقل تثقيفه وتقويمه حتى يمكنه أن يتنبه للمعلومات فيزنها بميزان الاعتبار ويدقق فيها حتى لا تخفى عليه دقائقها ، كما أنه يصرف قواه فى وظائفها على أكمل الأوجه .

ولا وسيلة للتقوية والتربية إلا التمرين والاستمرار بالشىء على تأدية وظيفته . فإذا أريد تقوية اليد أو الرجل مثلا وجب تمكينها وتمرينها على العمل اللائق بها ، وإذا أريد تقوية العقل وجب أن يحمل على أداء وظيفته ويمرن على الأمور العقلية التى لا تجهده ولا تكلفه ما ليس فى طاقته ، كما أنه يجب تعهد جميع القوى مثل الإرادة والوجدان بأن يكون لها نصيب من التربية والتمرين .

أقسام التربية

قد علم مما سبق آنفا ما قيل فى معنى التربية فلنذكر هنا أقسامها فنقول :

اعلم أن أقسام التربية ثلاثة وهى التربية الجسمية والتربية العقلية والتربية الأدبية ، ولنتكلم عليها على هذا الترتيب فنقول :

التربية الجسمية

علاقة هذه التربية بالجسم أنها هي الوسيلة التي تتخذ لتنمية الجسم وتقويته ووقايته من العلل والضعف، ولا يخفى عليك مبلغ الحاجة إلى هذه التربية، فإن سلامة الجسم ونشاطه لمن أكفل الوسائل بإتقان الأعمال الحيوية، سواء كانت بدنية أو عقلية، ولذا قيل إن من أول أسس النجاح أن يكون الإنسان حيوانا صحيحا، وإذا تأملنا فيما نشاهده دائما من اختلال نظام الجسم نعلم مبلغ ارتباط الفكر بالجسم وحاجة الأول إلى سلامة الثاني، كيف لا وهل الجسم وحواسه إلا سبيل تسلكها حقائق الأشياء فتنتهي بها إلى العقل.

تحتوي التربية الجسمية على كل ما يلزم لتنمية الجسم وتقويته كالتمريض والتغذية والادواء والرياضه البدنية.

فعلى القائم بأمر التربية أن يلم بجميع ما يلزم له في سبيل تدبير المدرسة وتنشيطها الطبيعي، وكذا ما يلزم العلم به من قواعد الصحة، حتى إذا مادرسوا أخلاق الأطفال وطبائعهم، وكذا ما ينجم عن الأماكن والأوضاع غير الصحية من الأمراض والعلل، أمكنهم أن يسيروا بالأطفال في طريق السلامة مهتدين بما تعرفوه من مسائل تلك الفنون ومن ذا الذي لا يوجب على المعلم أن يعرف أمثال القضايا التالية.

١ — الجسم بما فيه من اعضاء لا يستطيع أن يقوم إلا بما لا يشق عليه من الكلف.

٢ — تحريك أعضاء الجسم يزيل ما يحدث السكون الطويل من الفتور .

٣ — يجب الا تطول الدروس حتى لا تحدث فى نفوس النشء مللا ، وتعتبر فى ذات أعمال التلاميذ والموضوعات ونحوها .

التربية العقلية

الغرض من هذه التربية أن تمرن القوى العقلية وتدرب حتى تؤدى وظائفها على أكمل وجه ممكن ، وكذا أن تودع القوة الحافظة كثيرا من مسائل العلوم والفنون . وقد عرف الفرنج العقل فقالوا إنه القوة التى بها الاحساس والتفكر والارادة . فالتربية العقلية يجب أن يرمى بها إلى إبلاغ الإنسان درجات الكمال فى تلك المظاهر الثلاثة .

التربية الأدبية وتقويم قوة الإرادة

للإنسان قوة الإرادة التى بها تخصيص إحدى جهتى الممكن من الأعمال وهما الوجود والعدم . والغرض من هذه التربية تقويم هذه القوة وتعديلها بحيث لا تنحرف بالشخص عن الجادة القويمة فى أعماله وأحواله . فيها يتعلم الإنسان الواجبات ويتعود إقامتها وبها تهذب صفاته وتتمحص غرائزه وطباعه ويحسن سلوكه وتستقيل معاشرته .

وبقدر ما تترتى تلك القوة فى الأطفال تكون درجاتهم فى

الإنسانية . فاذا حسنت إرادتهم وقويت عزائمهم وصلوا إلى الكمال الإنسانى أو كادوا .

وإذا ضعفت أو خبثت انحطوا إلى عالم العجماوات . فلا ينبغى للمعلمين أن يهملوا الأطفال مندفعين فيما هم مفطورون عليه من الشهوة والانفعالات المحضة اللتين لم تقرنا بالحكمة والتدبر لعواقب الأمور ، بل عليهم أن يبرزوا تلك الإرادة فى أبهى صور الكمال ، ويوجهوا كل عنايتهم إلى تقويتها ، ويعودوا الأطفال المروءة وحب الخير حتى يشبوا راغبين فيه مصوبين بعزائمهم الماضية نحو ذلك الكمال ، وكيف لا يسوغ المعلم أن يقف بالإرادة والاستقلال مواقف الريب والشكوك ، ويضرب الحجر على أفكار الشبان أو يطالبهم بالانقياد المطلق ولا يحبب إليهم العزيمة الماضية والإرادة الصارمة وهى أس السعادة والهناء . فعلى المربى أن يغرس فى الأطفال الميل إلى العمل للاكتساب والربح من الوجوه الشريفة ، وأن يفهمهم إلى معنى الشرف ليدافعوا عنه ويرغبهم فى التعارف وحسن المعاشرة مع أبناء جنسهم ، ويلفت نفوسهم إلى الرغبة فى الأعمال العقلية المفيدة الموصلة إلى احراز المعالى والفضائل التى تكسبهم شرفا ومجداً .

وإذا تبين هذا نقول :

إن مراتب التعليم ونظام التربية يجب أن يكونا على النحو التالى :

١ — بستان الأطفال

يتلقى فيه الأحداث مبادىء جميع العلوم فى صورة لعب تلذ النفوسهم .

والغرض منه إنما هو ترشيح الطفل وأعداده للقيام بمهام الحياة المستقبلة ، مع تعويده الترتيب والنظام فى حركاته وسكناته ، وأن يتجنب الفحش والرذيلة التى يكتسبها الحدث من أهله أن كان فى الطبقة الدنيا ، أو من خدامه وأولاد جيرانه إذا كان فى إحدى الطبقتين الأخريين .

مدة الدراسة فى هذا القسم أربع سنوات يبتدئها الطفل وهو ابن ثلاث .

مواد الدراسة :

(ا) الموسيقى والغناء ، والغرض منهما تهذيب الإحساس وترقيق العواطف والطباع وترقية فاضل الأخلاق .

(ب) اللعب والغرض منها اوصول إلى الحقائق الثابتة ، والتدرج منها إلى التفنن والاختراع التى يكتسبه الطفل أثناء تلك اللعب ، وإكسابها الأشكال التى تجول بفكره وهى أنواع كثيرة لكل منها غرض مخصوص .

(ح) الألوان . وذلك لكثرة ما تفيد فى تحديد الأشياء وتمييزها ودراستها مما يزيد الذوق رقة والفكرة دقة .

(ى) الأحجام . ولدراستها فوائد كثيرة جدا ليس هذا موضع بسطها .

(هـ) الرسم . والغرض منه تمرين قوة التمثيل على تأليف الصور الذهنية وإبراز ما يجول بالفكر من المدركات وصور المعقولات إلى الخارج ، وينتهى تدريب الأطفال على الرسم بتمكين قوة الاختراع والابداع من نفوس المتدربين .

(و) التهجى والمطالعة ، ولهما فى هذا الدور طرق مختلفة ولكنها جميعها تناسب قوة الأطفال فى سنى دراستهم هـذه .

أما الغرض من التهجى والمطالعة فظاهر لا يحوجنا إلى الأطالة فى البيان .

(ز) الآداب الدينية ومكارم الأخلاق وهذه يجب أن يكون مصدرها فى هذه السنين القـدوة الحسنة والمثال الصالح الذى هو المربية أو المربى الذى حوله . ثم ما يتلقاه من الحكايات والقصص والآيات السهلة الحاثة على مكارم الأخلاق المرغبة فى اكتسابه الخيرات وصالح الأعمال ، فإذا أخذ الأحداث بتلك المواد على أوجهها المبينة فى علم التربية فانها تكسب العقل والجسم فى النمو والجودة ما يفيد الأطفال فى مستقبل حياتهم ، فهى تعودهم التدقيق والبحث والتأمل فى الأشياء وترشدهم إلى التفـكر وتعودهم الاستقلال به عند أنفسهم ، وتبعث فى نفوسهم حب العمل والسرور بمباشرة شؤن أنفسهم ثم

تحملهم فوق ذلك على الحركات البدنية النظامية التى تساعد على نمو الجسم وتدبيره .

« المرتبة الثانية القسم الابتدائى »

« مدة الدراسة بها أربع سنوات »

تمهيد :

لما كان الغرض من التربية والتعليم هو إعداد النشء للحياة المستقلة والعمل ، وجب توجيه أنظارهم إلى ما يمكن اقتناؤه للانتفاع به عند الحاجة ولهذا الغرض نفسه وجهت العناية إلى بعض المهنات العملية للاستعانة بها على تخريج أفراد منهم يمكن الانتفاع بهم فى الهيئة الاجتماعية والذى رأيناه أن يضاف إلى المقرر العادي فى مدارس الحكومة ما سيأتى مفصلا لكل سنة على حدتها مع ذكر الغرض منه .

السنتان الأولى والثانية

الدروس المقررة فى برنامج المعارف المصرية ويضاف إليه ما يأتى :

العناية بالأخلاق من طريق الدين . أما الغرض فواضح فإن الأخلاق الفاضلة والسعى فى إنماء بذورها فى قلوب النشء من

الواجبات وبهما يستطيع النشء العيش فى كنف الفضيلة وهى من نفسها تدله على الخير وتمهد له سبيل الحياة وتنقيه من الأدران وتميت مصادر الجرائم التى تئن منها الإنسانية وفى السنتين الثالثة والرابعة يضاف إلى المقرر ما يأتى :

« التجارة »

وذلك أن يلم التلميذ بفائدة كل آلة من آلاتها وأن يدرب على العمل بها حتى إذا ما احتاج إليها عمل بها أو إذا رآها يدله علمه بها على وضعها فى موضعها .

« صف الحروف واستعمال أداة الطبع »

الغرض من تعليم الطلبة كيفية طبع الكتب التى بين أيديهم إنما هو تمكينهم من صنعة ينتفعون بها فى المستقبل هذا فضلا عن الفوائد المعنوية الجليلة التى يكتسبها بدراسة دقائق هذه الصنعة وأسرارها.

« السنة الرابعة : يضاف إلى المقرر فوق ما ذكر »

« مبادى الفوتوغرافية »

وذلك أن يرشدوا إلى كيفية تركيب الآلة المصورة وكيفية استعمالها وما تحتاجه بعد ذلك من الأعمال حتى تظهر الصورة على

الورق الحساس ، ولا بأس أن يعرفوا الأجزاء التى يمكن بها استخراج الصورة ومقدار كل حامض معرفة بسيطة .

« استعمال الدفاتر التجارية »

وذلك أن يتعلم الطلبة ما يسمى فن مسك الدفاتر التجارية والغرض منها ، وأقسام الأقلام وفائدة كل قلم وكيفية العمل له ، وفائدة هذا الفن ضبط الحسابات التجارية على الطريقة النظامية وتمكين عارفيه من التماس أسباب الرزق من طريقه ومما يجب أن يوصل إلى ذلك أيضاً :

(١) المسائل الأولية من العلوم الطبيعية

(٢) قانون الصحة

(٣) مسائل أولية فى الزراعة

(٤) الموسيقى

« تنبيه »

الأشغال اليدوية المقررة المذكورة فى هذه الأقسام وهى التجارة والطباعة يجب أن يتعلم منها الطفل نوعا واحداً وهو مخير فى تعليم الثانى .

« المرتبة الثالثة القسم التجهيزى »

(ومدة الدراسة به أربع سنوات) . يضاف إلى المقرر فى برنامج نظارة المعارف فى السنتين الأولى والثانية ما يأتى :

(التجارة) : ولها فائدتان :

(١) الجسمية : تمرين الأعضاء وتقوية العضلات مما يكسبه الجسم قوة ونشاطا ويجعله صالحا للعمل دقيقا فى ذوقه .

(٢) المادية : الالتجاء إليها والتكسب بها إذا أعوزته الحاجة

(الفنون الجميلة) : الموسيقى الرسم العملى والزيت .

الفوتوغرافية : التوسع فيها ومعرفة كل الطرق التى يمكن بها استخراج الصور مع شرح ما يتعلق بها من الأحماض اللازمة التى تعين التلميذ على التوسع فى الكيمياء وكذلك معرفة التكبير والتصغير والتلوين وهكذا « التايبرايتر » واختزال الخط بهما يعين الطالب على سرعة إنجاز الأعمال مع الدقة وحسن النظام وعدم إضاعة الوقت .

مبادىء فلسفة الدين الإسلامى التى تنمى القوى العقلية وتكسب الإنسان معرفة دقائق حكم الدين الحنيف وسمو أغراضه التى تمحو ما علق بالأذهان من الخزعبلات والخرافات التى كانت السبب الأكبر فى انحطاط المسلمين من جراء فهمهم الدين على غير وجهه

الفنون التجارية : التوسع فى الفنون التجارية ودراسة القانون التجارى باستيفاء .

مبادىء الفلسفة : الغرض منها تقوية المفكرة وحث الإنسان على التعمق فى البحث وعدم الأخذ بالقضايا مسلماً بها لأول وهلة .

فلسفة التاريخ : والغرض منه فهم الأسباب والمسببات للحوادث المهمة مما يترك أثراً حسناً فى نفس الطالب ويجعله يتمسك بأهداب الفضيلة التى يقام عليها الدليل التاريخى والنظر بإمعان فى أسباب ونتائج الحوادث .

التوسع فى التصوير بالزيت : والغرض منه أن يصبح الطالب قادراً على التصوير باليد واستخدام الألوان فى أماكنها مما يقوى غريزة الذوق فى قلبه .

مبادىء علم الهيئة : الغرض منه أن يعرف الطالب كيفية نظام الكواكب والمدارات التى تسير فيها وما ينشأ عنها من الظواهر الكونية وأسماء كل منها وما يلحقها من التغيير والتبديل وأسباب ذلك بعبارات يفهمها الطلبة .

الرياضة البدنية : قد حرمت مصر من الخدمة العسكرية الإلزامية ولهذا حرمت كل الحرمان من ركن من أركان التربية النفسية ذلك الركن الذى تقام عليه كثير من الفضائل ومكارم الأخلاق كالشجاعة والصبر وتضحية النفس فى سبيل المصلحة

العامة وكالشهامة التى لايحتمل صاحبها الضيم ولا يقبل الذل وكالمروءة التى تحمل صاحبها على بذل النفيس فى سبيل خير البلاد وتحبب إليه التعب والظمأ والمشقة فى صيانة البلاد والدفاع عنها ، ثم إنها مع ذلك تكسب البدن صحة وتزيده قوة وفتوة .

مدارس البنات :

أسلفنا أن مدارس البنات القائمة غير كافية الأمة حاجاتها ولا وافية بشىء من مطالب المرأة باعتبارها نصف الأمة عليها من الفروض والتكاليف العمومية مالا يقل عما على الرجل ، ولهذا كان حقاً على الأمة أن تتجنب الأخطار والمضار التى سجلها عليها إهمال أمرها والتلكؤ فى إصلاح حالها وتقويم معوجها . ومعلوم أن لاسبيل إلى ذلك إلا إقامة مدارس تدور براجها وأنظمتها حول نقطة واحدة وهى أن تخرج من بين جدرانها أمهات عفيفات قادرات على تدبير أولادهن عليمات بتدبير منازلهن وتدبير أزواجهن وتدبير أنفسهن فى مختلف أحوالهن .

أما البرنامج الذى ينطبق على ذلك الناموس فيما نرى فهو كما يأتى : —

(١) القراءة والكتابة وما يتعلق بهما من التفصيلات .

(٢) مبادىء الحساب والهندسة العملية .

(٣) الرسم والتصوير النظرى والعملى .

(٤) مبادىء العلوم الطبيعية .

(٥) قانون الصحة بأقسامه .

(٦) مبادىء التاريخ الطبيعى بأنواعه والعناية الشديدة بقسم الفسيولوجيا .

(٧) مبادىء علم النفس ودرس طبائع الأطفال .

(٨) تدبير الحامل والنفساء والمرضع فى جميع الأطوار .

(٩) تدبير الطفل من وقت ولادته .

(١٠) تدبير المنزل بجميع فروعه .

(١١) الأشغال اليدوية الضرورية التى تزين الغنية معرفتها وتكسب الفقيرة قوتها .

(١٢) مكارم الأخلاق مستنبطة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة وكذلك مبادىء فلسفة الإسلام . وما يناسب المرأة من الأحكام الشرعية

(١٣) شىء من الجغرافيا .

(١٤) مقدار صالح من تاريخ الإسلام .

الكتاتيب :

يجب ألا تستغرق الدراسة فى هذه المعاهد أكثر من نصف نهار من كل يوم ، فكتاتيب الريف يؤمها الطلاب من الصبح

إلى الظهر ومن بعد الظهر إلى المساء على التعاقب وكل طائفة تقضى نصف نهار فى الكتاب يجب أن تقضى النصف الباقى فى الغيطان والحقول وكذلك كتاتيب المدن التى بها المصانع والحرف المدنية تشتغل فيها التلاميذ نصف النهار ثم يذهبون إلى المصانع لدراسة ما فيها من الصنائع والحرف .

التعليم الزراعى :

يجمل بنا أن نقتبس هنا ما جاء تحت هذا العنوان فى كتاب زراعة القطن ومقاومة آفاته الذى ظهر حديثاً لمؤلفه أحمد افندى الألفى إذ قال :

من الغريب أن يغفل التعليم الزراعى إلى هذا الحد فى بلاد يتعلق كل شىء فيها على الزراعة ويظهر هذا النقص فى استعداد الزراع ظهوراً جلياً إذا اعتبرنا أن ليس فى البلاد ما يسد مسده سوى معلومات زراعية عمومية بسيطة فكان من ذلك أن الأغلاط الزراعية الفاضحة من السلف إلى الخلف من دون أمل بإصلاحها كعدم الحكمة والتروى فى اختيار التقاوى والإفراط فى استعمال ماء الرى وإجهاد الأرض وعلاوة على ذلك فإن الملاحظة والامتحان وهما أساس جميع معارف البشر يكاذان يكونان معدومين عند المشتغلين بالزراعة لعدم معرفتهم كيف يستفيدون منها فنشر التعليم الزراعى يكون من ورائه إتحاف معامل التحليل

الزراعية بمعلومات مفيدة جداً فى الزراعة فيتيسر لها ترقية معارفها التى لا تكاد تستحق الذكر الآن ، ولذلك وضعت اللجنة الأمنية التالية . وبها تطلب نشر التعليم الزراعى فى درجاته الثلاث وهى : الابتدائية والثانوية والعليا . وأن يعمد إلى نشر هذا النوع من التعليم فى درجاته الثلاث المعتادة فيتم التعليم الابتدائى فى مدارس بسيطة أو حقول للامتحانات الزراعية تكون قليلة الكلفة يقضى التلاميذ أوقاتهم فيها بين الأعمال اليدوية والدرس النظرى الموجز . ويكون التعليم الثانوى كتعليم مدرسة الزراعة بالجيزة ويعم بإنشاء مدارس أخرى من النوع نفسه .

وعندنا أن التعليم الزراعى الابتدائى يكون فى حقول التعليم حيث يقضى أبناء الزراعة أوقاتهم فى الأعمال الزراعية ويخصصون ساعات معينة للدروس النظرية الموجزة حتى يتيسر لهم استيعاب الظواهر الطبيعية على وجه معقول سواء أرادوا متابعة دروسهم أو الانصراف إلى أعمالهم الزراعية أما المعلمون فى حقول التعليم فيختارون من متخرجى مدرسة الجيزة الآن وعندنا أن وجود مدرستين كهذه المدرسة لا يكثر على القطر المصرى لتسُدّ إحداهما حاجات الوجه البحرى والأخرى حاجات الوجه القبلى لما بين الاثنين من التباين .

مدرسة النسيج :

ومما يجب المبادرة بتأسيسه مدرسة للنسيج على مثال ما رأينا قريبا فى مدينة ليون يقبل فيها حملة الشهادة الابتدائية أو من أتموا دراستهم فى الكتاتيب بنجاح مرض .

ولقد زرنا فى ليون مدرسة من هذا النوع فوجدناها على بساطتها وزهادة قيم الآلات البخارية المستعملة هناك كثيرة الفوائد جمة المنافع يؤمها الطلاب فيتعلمون فيها ما يختص باستعمال تلك الآلات ثم ما يتعلق بالتلوين والرسم والنسيج بالفعل وهلم جرا . ومما ينبغى أن يلاحظ هنا أن لتلك المدارس غلة ربما لا تكاد تحتاج معها إذا بيع نسيجها إلى مساعدات أخرى . وجدنا ثمن كل عدة من تلك العدد نحو عشرين جنيها ويكفى أن تحتوى المدرسة المتوسطة على ثلاثين آلة يستخدمها على التعاقب نحو مائتى طالب يشتغل فريق منهم بالتدرب على النسيج تحت مراقبة المعلم الخاص به بينما تشتغل الفرق الأخرى بالرسم ونحوه من المواد المقررة .

(المرجع المجلد الثانى من مجلة « الهداية » ص ٢٢٢) .

أما المشروع الذى قصد إليه بهذه الخطبة الفياضة وأعلنه بعد الخطبة فهو أشبه شىء بوزارة معارف أهلية وهذه بعض مواده :ـــ

المادة الأولى :

بين الموقعين على هذا العقد ومن يقبلون فى المستقبل بشروطه شركة تعاون — أهلية باسم (شركة دار التعليم الأهلية) .

المادة الثانية :

الغرض من تأسيس الشركة هو تسهيل التعليم على الأهالى بنين وبنات مع تحسين التربية حتى تكون الأخلاق راقية وللوصول إلى ذلك تؤسس الشركة : —

أولا : مدارس بساتين الأطفال لتربية الأطفال الذين لايزيد عمرهم عن سبع سنين .

ثانيا : مدارس ابتدائية وثانوية عالية لتجهيز الطلبة للحصول على شهادات الحكومة مع التوسع فى التعليم والاهتمام بتحسين التربية .

ثالثاً : معاهد للتعليم الزراعى والتجارى والصناعى ويدخل فى ذلك تعليم الفنون الجميلة على اعتبارها طريقة من طرق الارتزاق .

رابعاً : ترتيب سياحات علمية وصناعية وتجارية للمتعلمين داخل القطر وخارجه .

كل ذلك ملاحظ فيه تعميم المجانية فى المعاهد السالفة الذكر بنسبة لا تقل فى أى حال على ٢٥ ٪

* * *

أقول ويلاحظ مما تقدم بيانه من المواد أن الشيخ جاء للتعليم بأشياء جديدة كرياض الأطفال . والتوسع والاهتمام بالتربية وتأسيس معاهد للتعليم الزراعى والتجارى والصناعى والفنون الجميلة وترتيب سياحات على النحو الذى بينه . . وتعميم المجانية بنسبة تساعد الفقراء على التعليم مع الأغنياء ومتوسطى الحال .

وكل هذه مبتكرات فى التعليم لم تكن موجودة فى الجو التعليمى الحكومى بوزارة المعارف فى عهده (وكل ذلك بالمجلد الثانى « من الهداية » من ص ٢٣٣ — ٢٦٤) .

* * *

للشيخ مرحلة غير ما تقدم — من مراحل ترقية التعليم هى مرحلة عملية طيبة

المدرسة الإعدادية

أفردت الكلام عن هذه المدرسة ، لأنها كانت نهاية التطبيقات العملية للشيخ فى آرائه فى التربية والتعليم .

كلمة (الإعدادية) كان يراد بها التعليم الثانوى . ولم يكن مدلولها كما هو فى هذه الأيام .

أسس الشيخ هذه المدرسة الثانوية بحى الظاهر لتكون مدرسة حرة مثالية ، بعيدة عن الضغط الإنجليزى الذى كان هو سياسة (مستر دانلوب) مستشار وزارة المعارف يومئذ ، فكان طلبة المدارس الحكوميه أبعد الطوائف عن مجاراة الوطنية فى أى مظهر

من مظاهرها ، فأراد الشيخ بتأسيس هذه المدرسة حوالى سنة ١٩١١ أن تكون مثابة الوطنية الصادقة للتلميذ المصرى ، وقد أدت رسالتها فعلا من هذه الناحية الوطنية ، فكان كل طلبتها يدخلونها وهم على علم برسالتها الحيوية هذه ، ولذلك يبدو على من كانوا طلبة فيها — حرية الرأى إلى الآن — وقد اختار لها الشيخ ناظراً آية فى الوطنية ، وفى العلم الرياضى . وقد استمرت بعد إبعاد الشيخ من بلاده تؤدى رسالتها ، إلى أن تركها ناظرها إلى مدرس رياضة بكلية الهندسة .

عاد الشيخ متعبا مما أصابه وما حل به فى منافيه طيلة أحد عشر عاما إلى أن فتح وزير المعارف يومئذ باب إصلاح التعليم الإلزامى ويحدثنا فى ذلك الدكتور حافظ عفيفى فى كتابه (على هامش السياسة ص ٩٤) بأنه تألفت لجنة فى ٢٧ من يونية سنة ١٩٢٥ لإعداد مشروع قانون للتعليم الإلزامى يشمل اختصاص كل من وزارة المعارف ومجالس المديريات والمجالس البلدية . وما يتطلبه هذا المشروع من النفقات وتحديد مشاركة هذه المجالس .

وهنا أخذ الشيخ يستعيد نشاطه ويدلى بآرائه فى هذا الشأن الكبير الذى هو حجر الأساس فى رفع الأمية عن الشعب .

ويروى لنا أحمد شفيق باشا فى كتابه السالف الذكر « أعمالى بعد أقوالى » أن الشيخ جاويش افتتح مؤتمر التعليم الإلزامى الأولى

فى ١١ من يولية سنة ١٩٢٥ وكان حديثه (التطورات الحديثة فى التعليم الأولى) وفى هذا العام عين الشيخ جاويش مراقبا عاما للتعليم الأولى . . . . . وكما بدأت حياته بحرفة التعليم الفعلى — ختمت بحرفة التعليم على نسق إدارى إصلاحى كان له فيه الباع الأطول .

الشيخ الأديب

كان للشيخ فطرة أدبية ، ميزته وهو طالب بدار العلوم — هو وقليل من زملائه — على الكثرة الغالبة من طلبة المدرسة — وقد سمعت من زميله الأديب الشيخ مصطفى عنانى أستاذى بدار العلوم أن الشيخ كان يكتب موضوعاته الإنشائية بأسلوب أدبى ، وبأفكار سليمة ، مما جعل له ، ولقلة معه ، سمعة أدبية طيبة .

وقد جربت بنفسى وأنا طالب — أن كثيرين من الخالين من الفطرة الأدبية كانوا يحاولون اللحاق بمن عندهم شيء من هذه الفطرة ، فكانوا يقضون الإجازات الصيفية فى الحفظ والمطالعات ولكنهم لم يستطيعوا اللحاق ، وكنا نصفهم (حفاظ الألفاظ) .

ومن هذا الباب ما أخبرنى به ولده (ناصر) من أن والده كان يحتفظ ببعض كراساته فى مادة الإنشاء ، ولكنه لم يقف لها على أثر بعد أن أبعد والده من مصر سنة ١٩١٢ هو وجميع أسرته .

وضح أدب الشيخ بعد تخرجه فى معهده ، فكان فى أول أمره مؤلفاً ، وقد عرف أسلوبه الأدبى من تأليفاته ، وخاصة من أسلوبه فى كتابه القيم (الإسلام دين الفطرة) وإذا كنت أشير إلى هذا الكتاب فى هذا الموضع فإنها إشارات أدبية بحتة ، تتعلق

بالأسلوب الذى كتب به الشيخ كتاباً علمياً ، وسيجىء الحديث عن هذا الكتاب فى موضعه .

يقول فى مقدمة باب تعدد الزوجات — إن النقائص التى مثلت بالإسلام فى أعين غير أهله ، إنما نشأت من اعتبار أعمال الخلف — ميزاناً تقدر به قوانين الشرع ونواميسه ، فمن قائل بسد باب الاجتهاد ، ومن إمام أو خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية أن ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب إليه ما ليس من دينه فى شىء ، ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير ، تذرعا إلى الزلفى منه ، ومن أحمق أرعن لم يرض من اليسر ما رضى الله لعباده ، فشط بالناس ، واعتسف بهم ، حتى ضاقت نفوسهم ، وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين ، فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون » .

ويقول كذلك فى باب (جمود المتصدين للفتوى) : « أقول ذلك إذ رأيت من الشباب المسلمين من كانوا يطرقون أبواب شيوخ العلماء ، ويغشون مجالس أئمة الإسلام ، لا لغرض سوى استفتائهم فى بعض أصول الدين ، والفرار إلى معاقل علمهم وهدايتهم ، يتقون بها هجمات جيوش الشكوك والأوهام ، حتى إذا استفتحوا عليهم بكلمة واحدة فى ذلك ، سمعوا من فحشهم وسبهم وتقريعهم ما كان يصد أولئك الحائرين عن مجالسهم ، وقد تنازعتهم ضلالات الحيرة ، ودفعتهم معاملة الشيوخ إلى اليأس من بلوغ غايتهم ، وصلاح عقيدتهم » .

كما أقدم لك مثلا آخر من الأدب البحت للشيخ، هو المقال الذى صدر به ديوان الشيخ على الغاياتى سنة ١٩١٠ وكان الشيخ الغاياتى من شعراء الحزب الوطنى، فأراد محمد فريد بك، والشيخ جاويش أن يلقيا إلى هذا الديوان لفتتين كريمتين، فكتب كلاهما مقدمة لهذا الديوان. وهاهى مقدمة الشيخ بعنوان (الشعر والشاعر).

« قد يتوهم بعض المتشاعرين أن الشعر هو تلك الجمل الموزونة ذات الروى الملتزم فتراهم أجرأ ما يكونون فى تقصيد القصائد والانتساب إلى دعوى الشعر، معتمدين على جهل كثيرين بأسرار الشعر ومزاياه، وشرائط صحته وكماله، عالمين أن الأدب قليل أهله الذين يميزون بين الخبيث والطيب، ويدركون دقائق الفروق التى بين الأبيات العامرة والأبيات الغامرة. لا سيما فى هذا الوقت الذى ضعفت فيه ملكة اللغة العربية، إذ طرأ على العرب من العجمة المتفشية ما أصبح معه الذوق بعيداً عن السلامة، وتاليف العبارات أحوج ما يكون إلى الاستقامة.

إذا شئت أن تعرف جيد الشعر فدع عنك تفاعيل البحور، والتزام الحروف ومحسنات الألفاظ، واعتبر بما يتركه فى نفسك من الأثر، فان أحسن الشعر ما يملك قلبك حتى تفرغ منه، كما أن أجمل الصور ما يملك بصرك حتى يغيب عنه.

إذا شئت أن تعرف الفرق بين الشعر المطبوع والشعر المصنوع فإن شعرت وقت سماعه كأن معانيه أرواح تناجيك

وألفاظه تكاد تخرج من فيك فذلك هو المطبوع . وإن ذهبت أغراضه بقلبك مذاهب شتى ، ولم يحمل فى السمع ديباجته و تنسيقه ، فذلك المصنوع الذى لا يرد عكر معينه إلا متشاعر جاهل . أو شاعر مأجور . وكيف يحمل الشعر ويلذ استماعه إذا خرج من قلب لا يتأثر . ونفس لا تنفعل . وهل الشعر إلا مرآة يرى فيها آثار الانفعالات النفسية التى تقوم بنفس واضعه .

قال عبد الملك لأرطأة بن سهية كيف أنت الآن فى شعرك ، فقال والله يا أمير المؤمنين ما أطرب ولا أغضب ولا أرغب ولا أرهب ، وما يكون الشعر إلا من نتائج هذه الأربع .

ليس الشعر أن يمعن الشاعر فيما وراء الحقائق من الصور الوهمية أو أن يسلك سبيل الإغراق فى المدح والذم . فإنما الشعر تصوير ما يدور بالذهن من الصور ، فكما أن أمهر المصورين ليس ذلك الذى يؤلف بين الأجزاء المتنافرة ، أو الذى يرسم على الورق ما لا يطابق شيئاً من حقائق الأشياء الخارجية ، بل هو ذلك الذى يعمد إلى أحد الكائنات فيصوره مجيداً (تظليله) ، حتى يخيل إلى رائيه كأنما ينظر إلى ذلك الكائن الثابت فى الخارج . كذلك أمهر الشعراء من يأتى إلى الحكم والقضايا الصادقة فيبرزها إلى السامع بعبارات تصبى الألباب إليها وتدفع المستمع إلى العمل بمقتضياتها .

وماذا على الشاعر بعد أن يوفى شعره قسطه من الصدق وثاقب الرأى سوى أن يجيد تأليف العبارات ، ويحكم مطابقة المعانى بعضها ببعض ، فانما الشعر كالتوقيع واللحن ، فكما أن اللحن لا يخف على السمع إلا إذا تناسبت الأجزاء التى يتألف منها ، فكذلك الشعر إذا لم تتألف عباراته ولم تتناسب معانيه ، كان صمما للآذان ، وغمة لنفس الإنسان ، ومن شاء أن يرى نموذجا من الشعر جمع بين رقة الألفاظ وجزالة المعانى وألف بين أحكام التأليف وصدق العبارة فليقرأ شيئاً من (وطنيتى) ومن شاء فليسأل عن آثارها تلك الهمم الناهضة والنفوس المتوقدة والعزائم الصادقة فإنها من غراسها وجميل ثمارها .

كما أقدم مثلا من أدبه فى الرثاء . فقد رثى الشيخ المرحوم (محمد فريد) يوم وفاته بألمانيا (١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩) ـ بخطبة هى فى معانيها عواطف سياسية ، ولكنها فى أسلوبها الأدبى على صراط مستقيم .

قال الشيخ (مع بعض التصرف) :

« أيها السادة . أمام جثة هامدة ، وميت لا يعى ، نحن واقفون . . كلا . ثم كلا . . إنما نحن وقوف أمام صفحات من تاريخ الجهاد الأكبر فى سبيل الحرية البشرية ، فى سبيل الذود عن الحقوق الطبيعية للشعوب الإنسانية ، فى سبيل مصارعة الأمم القوية ، ذوات المطامع الأشعبية .

نحن وقوف أمام هذا الراحل الكبير ، الذى كانت حياته مثالا كاملا للمتشبهين ، وقدوة صالحة للعاملين ، فها هى تلك صفحاتها الناصعة ترينا كيف جمع فقيدنا العزيز ، إلى صلابة العزم ، جهادا لا يوهنه الملل ، ولا يوهيه الكلال ، كما ضم إلى الصراحة البالغة فى كتابته وكلامه ، إقداما يستهزئ بالغوائل ويسخر من كارثات النوازل ، لقد رأيناه رحمه الله يوم ساقه الإنجليز إلى السجن بمصر . فما كان إذ ذاك أقل ابتساما منه ، يوم فارقه بعد ستة شهور كاملة ، قضاها فى غيابته وظلماته .

وضيق الإنجليز المذاهب على فقيدنا ، وأخذوا الأبواب والمسالك على قلمه ولسانه ، فلم ير بدا من مفارقة وطنه ، وأولاده وعشيرته ، إذ خرج يلتمس فضاء يسع صيحاته التى ضاق عنها فضاء بلاده ووقرت دونها آذان أعدائه .

جاهد رئيس الحزب الوطنى فى سبيل تحرير بلاده ، وكان يرجو أن لا تعاجله منيته قبل أن يراها خالية من ظل الجبابرة المغتصبين ، فكنا نخشى وقد سارعت إليه المنون أن يحزنه حرمانه من نيل أمنيته ، واكتحال عيونه بشمس الاستقلال والحرية مشرقة على ربوع وطنه العزيز ، ولكننا رأيناه رحمه الله قبيل وفاته قرير العين مشروح الصدر إذ أبصر كيف تشيد أمته النجيبة على ما أقامه هو وسلفه الصالح مصطفى كامل باشا من الدعائم المتينة ، صرح

الحرية والاستقلال ، ذلك الصرح الذى سيعانق يوما ما الأهرام ويدوم ما تعاقب الجديدان .

أبصر الرئيس كيف تبنى أمته الكريمة حياتها الحرة المستقلة بما يتساقط من رءوس أبنائها ويتمزق من أفلاذ أكبادها ، وبما يتدفق من دماء شهدائها ، أبصر فريد كيف أصبحت قواعد الحزب الوطنى الذى يرأسه عقيدة كل فرد من أفراد الأمة ، وغاية كل مجاهد من رجالها أبصر فريد كيف اتحدت كلمة الشعب وتعاقدت خناصره ، إذ ألف الله بين قلوب أحزابه وطوائفه ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا ، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله منها ، أبصر فريد كيف نافس فى سبيل الوطن المفدى أطفال الأمة وشيوخها ونساؤها — الرجال ، ومسيحيوها — المسلمين ، وكيف تعانق الهلال والصليب وائتلف القرآن والإنجيل وتعانق الشيخ والقسيس .

وإذا كانت حياة الرجال أيها السادة خيراً للأمم التى يخدمونها فكم منهم من أفاد بمماته بمقدار ما أفاد بحياته ، ليس فريد بتلك الجثة الهامدة ، والنسمة الجامدة ، وإنما هو تلك النفس الأبية والقدوة الصالحة والذكرى الطيبة التى سيجددها بلى الأيام ، ويوالى نشرها انطواء العصور والأجيال ، فطوبى لمن سن سنة حسنة وطوبى لمن اقتدى بالعاملين .

والآن نستودعك الله أيها الرئيس المحبوب ، فنم مغموراً برحمة الله

وإحسانه ، زوداً من أمتك بالدعوات الصالحة والذكرى العاطرة والحب الدائم ، والسلام عليك ورحمة الله » .

* * *

وجدير بي وأنا أتحدث عن أدب الشيخ أن أشير إلى مدرسته الأدبية .

قدمت أمثلة من أدب الشيخ ، فى أسلوبه التأليفى وفى أسلوبه الأدبى البحت ، وفى أسلوب الرثاء فى أدب العاطفة الوطنية . وألحق بها مثلا غيرها ، هو مثل سياسى بحت ، ولكن الشيخ كتبه بأسلوب الأديب المطبوع الذى يكتب كل ما يكتب بلغة الأدب . ذلك هو خطابه الذى أرسله إلى الحكومة المصرية ، بعد أن عاد إلى مصر مستخفيا ، وقد أرسله وهو لايزال فى اختفائه — إلى جميع الصحف المصرية ، فنشرته جميعها فى يوم (١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٣) .

وإليك الخطاب وهو بعنوان (تجديد العهد) مع تصرف قليل بالحذف :

« لشد ما وددت أن تسلك الحكومة المصرية فى معاملتى مسلك الكياسة فى السياسة ؛ فتتذكر سابق جهادى فى سبيل بلادى ، وابتعادى عن عزيز قومى وأولادى ، ثم تحترم ذلك المقام الذى أحرزته فى تركيا وغيرها من الممالك ، أرفع به ذكر مصر فى الأمصار ، وأحارب ما يدبره العداة الأشرار .

« لجأت إلى الحكومة أستميحها الإذن لى فى العودة ، ثم جعلت أرقب ذلك الإذن زهاء الأربعة شهور .

« لم أفعل ذلك لأن الإذن بعودتى ليس من المنح والأعطية التى تجود بها أيدى المحسنين ، فإن ذلك حق خوله الدستور كل مصرى ، فمن الخطأ توهم أن تنكره على حكومة دستورية ، ثم لم أقض تلك الشهور بالانتظار الممل ، لأن بيد الحكومة مفاتيح البر والبحر ، وطرائق السماء والأرض ، وأبواب الولوج والخروج ، وسلالم الهبوط والعروج ، فلا تتحرك نسمة إلا بأمرها ، ولا تنتقل قدم إلا بعلمها . فها أنا اليوم بمصر بعد أن مللت الانتظار ، وأشهد على مسلكها المعوج سائر الأقطار . استعنت القادر على كل شىء ، فقدمت حيث شئت ، ودخلت من حيث شئت ، وأقيم الآن حيث شئت ، فهل رأتنى عيونها الساهرة أو صدمتنى قوتها القاهرة ؟ على أنى لو شئت لأتيت من قبل ، ولكن أبى على أدبى أن آتى البيت إلا من بابه ، أو أدخله إلا بعد استفتاحه ، ولا أخالنى بعد الذى فعلت إلا مقدراً بنى وطنى الأعزة .

إلى أن يقول :

« أى قومى . لو كنت ممن لا يحيون إلا فى أجواء الإعلانات الأمريكية . أو الذين لا هم لهم إلا أن يحمدوا بما فعلوا وما لم يفعلوا ؛ أو لو كنت من المؤلفة قلوبهم الذين يمنون على الوطن وهم حديثوا العهد بما يظهرون من الهداية والتوبة والوطنية ، لو كنت من هؤلاء

لما تقاذفتنى البلدان ، وطوحت بى الظروف إلى صخور الشدائد ، لأتكسر عليها ، وهلت على هذا الوطن من تراب المزاعم والدعاوى ما يجعله منى كالقبر يهال عليه التراب ، فلم يبق بعد سوى القبر المعرب عن نفسه ، القائم على من فى جوفه ، بينما ذلك الدفين يعجب كيف تزن الحجارة باسمه وتخلفه فى أهله وقومه ، على أنه لا يعوزنى بحمد الله ما أملأ به أنهار الصحف من الحقائق التى أحصاها التاريخ لو كنت من مهرة أرباب الإعلانات الأمريكية ، ولكننى ذلك الجندى الذى لا يتكلم إلا بسلاحه ، والخادم الذى لا يعرف غير وظيفته .

إننى ذلك الجندى الذى يحيى بلاده بموته ، ويسعدها بشقائه . ويديمها بفنائه ، وما أنا بالذى لا يشتغل إلا نائبا ، ولا يعيش إلا رئيسا ، فلتكن نتيجة الانتخابات ما شاءت الأقدار فإننى لا أنفك قائماً على العهد الذى قطعته على نفسى أمام الله ، وأمام وطنى (أن أجاهد فى سبيل بلادى حتى آخر أنفاسى ، وألا أطيع فى سلامتها والدفاع عن كامل حقوقها ، سوى حبها الذى ملأ قلبى ، وأمرها الذى هو من أمر الله . . .)

***

هذا الأديب كله له مدرسة أدبية ، هى مدرسة التلقى عنه ، والعناية بكل ما يكتب أو يخطب ، مما كان يبلغ أحياناً بمحبيه إلى أن يحفظوا عن ظهر قلب الكثير من آثار قلمه وبيانه ، ولم أر موضعاً أتحدث فيه عن مدرسة الشيخ هذه إلا هذا الباب . باب الأدب .

مدرسة الشيخ :

للشيخ مدرسة . . أو رسالة . هذه المدرسة أو هذه الرسالة هي أن الناس أولعوا بقراءة وحفظ ما يكتب في الكثير من نفثاته القلمية . ولا ريب أن التقبل القلبي لما يقرؤه القارىء أول أسس الأخذ والاقتداء ، وقد كان الشيخ يكتب من قلبه العامر بالإيمان . فيصيب بذلك النجاح الأكبر ، ويضع قارئوه آثار قلمه في أرفع المواضع من أفئدتهم ، وكان الشيخ يحس بذلك التقدير من الجماهير فيبادلهم حبا بحب . . ووفاء بوفاء . . واستجابة باستجابة . . ومن القواعد المقررة أن المبادلة في المشاعر هي أولى الأسباب في نجاح الرسالات . على اختلاف أغراضها .

كان الشيخ يكتب في « اللواء » ومن بعده في « العلم » كما كان يكتب في مجلة « الهداية » على اختلاف ما كان يكتب في الجريدة من سياسة وطنية وحملات لا تنقطع على الاحتلال وحكومات الاحتلال من المصريين ، وبين ما كان يكتب في المجلة من تفسير كتاب الله على طريقة الامام محمد عبده ، ومن ثقافات عامة — سيجيء في موضعه عند التحدث عن نشأة « الهداية » . وبذلك كان الشيخ مصدرا من مصادر الثقافات على اختلاف أنواعها وكان يقبل المتعلمون من الشعب عليها إقبالا أكبر . وبذلك تخرج على الشيخ خلق كثيرون في السياسة والأدب ، وفي تفسير كتاب الله ، وفي كل أنواع المعرفة . وهذا هو أقوم ما تؤدى به الرسالات الإنسانية . وتقوم به العقول . وتهذب به الأخلاق ، وتعمر به الأفئدة والقلوب .

الشيخ العالم المصلح

أقرن فى هذا الباب علم الشيخ بإرشاده فى الإصلاح عن طريق الدين مقتديا هو فى ذلك بالإمام محمد عبده صاحب المدرسة العليا فى تفهم الدين على حقيقته ، وفى إصلاح حال المسلمين بواسطته ، وفى تفسير كتاب الله العزيز .

فكيف تم للشيخ الاقتداء بالإمام ؟

يحدثنا فى ذلك السيد رشيد رضا فى الجزء الأول من مؤلفه (تاريخ الأستاذ الإمام) بقوله :

« وكان يحضر دروس التفسير غير هؤلاء — منهم الشيخ عبد العزيز جاويش بعد مجيئه من أوربا والشيخ مصطفى عنانى ، وقد كلفانى بأن أقدمها إليه ، وأذكر له رغبتهما فى الانضمام فى سلك مريديه ، ففعلت . »

بعد أن تمت صلة الشيخ بالإمام ، أخذ يتأثره فى كل شىء ، فى تفسير كتاب الله ، وفى البحث الدينى ، وفى اتجاهاته الإصلاحية . وقد سلك لذلك سبيليه ، سبيل التأليف ، وسبيل الخطابة ، فكان فيهما مرشدا ومعلما ، وعالما كبيراً .

(١) الشيخ المؤلف :

أسلفت أن الشيخ ألف فى التربية » والتعليم كتابين (غنية

المؤدبين » و « مرشد المترجم » وقد ذكرتهما فى موضعهما الطبيعى من هذا الكتاب ، وهو التحدث عن الشيخ المربى المدرس .

ألف الشيخ كذلك كتابا على طريقة الإمام فى البحث الدينى ، وقد استشهد فيه كثيراً بآرائه ، هو كتاب « الإسلام دين الفطرة » ألفه وهو فى بلاد الإنجليز لتدريس اللغة العربية فى جامعة (أكسفورد) بعد أن تتلمذ على الإمام بعد عودته الأولى من انجلترا وهو طالب علم سنة ١٩٠١ ، وقبل عودته منها سنة ١٩٠٦ وهو مدرس بالجامعة المذكورة .

والكتاب كله فلسفة علمية تكشف عن وجوه كثيرة من مرامى الدين الإسلامى التى يتم بها إصلاح العقيدة ، ومعرفة مرامى الإصلاح من أسرار هذا الدين .

إن عظم الشخصية وجاذبية الذات وسماحة الخلق ليس كمثلهن شىء فى تقارب القلوب وتجاذب الأفئدة ولقد عرف الشيخ عبد العزيز جاويش بهذه الممتدحات كلها عند تلاميذه ، الإنجليز فأخذوا يزورونه فى مقامه يتجاذبون معه الأحاديث فى مختلف الشئون ، وكان من نتائج هذه الصلة الطيبة بينه وبين تلاميذه ، الإنجليز — أن ألف كتابه هذا فى بلادهم . وكأننى أصغى إلى الشيخ وهو يحدثنى عن سبب تأليف هذا الكتاب ؛ قال فى ذلك ما نصه فى المقدمة .

زارنى ذات يوم ، وأنا فى أكسفورد من بلاد الإنجليز لفيف من نجباء طلبة العلم فى كليتها الجامعة ، فما كاد يستوى بهم المجلس حتى

أخذنا نتجاذب الحديث في أمر الشرق والشرقيين ، وما لهم من الأخلاق والعادات والأحوال التي تباين في كثير من الوجوه ماعليه أهل أوربة ، حتى أفضى بنا المقام إلى الكلام في الإسلام ، فوجدت من خلال حديث القوم أنهم لا يكادون يفقهون للإسلام معنى سوى أنه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات ، وأن المسلمين يعبدون محمدا كما يعبد النصارى المسيح ابن مريم ، وما زادني فيهم بصيرة ، فلطالما قابلت من أمثالهم ماوقفني على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف .

فأخذت إذ ذاك أبين ، لأولئك الأفاضل أصول الدين الإسلامي وقواعده ، وحكم بعض تكاليفه ، فكنت أرى القوم يتدبرون ما اقص عليهم ، من غير أن يستهوى نفوسهم تعصب ، ولا يعمى قلوبهم عناد أو جحود ، بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد ، من النقائص التي مثلت لهم الإسلام في أبشع صورة وأقبحها . ولم يكد ينتهي الحديث . حتى انطلق أحدهم قائلا . « يخيل إلى أيها الشيخ أن الدين لا ينافي الفطرة في شيء ، فأجبته إذ ذاك بما تذكرته من قوله عليه السلام . « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها » وترجمت لهم ذلك الحديث الشريف — والذي يفهم من الحديث أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ على الإنسان بفعل أبويه كالجدع الذي

يصيب الشاة بعد أن تولد على الفطرة سليمة لا عيب فيها . . .
ويدل على ذلك ما نص عليه الشرع الإسلامى من عدم تكليف القاصرين ، وألا يؤاخذوا بما فعل آباؤهم من التهويد والتنصير ، حتى يبلغوا راشدين راضين بدين آبائهم ، فيؤاخذوا إذ ذاك وقد ألقيت على كواهلهم أعباء التكاليف بما كسبت أيديهم إلى أن قال فإنا نريد أن نذكر لك وجه كون الإسلام دين الفطرة وأنه لو ترك الطفل وشأنه حتى كبر غير مهود ولا منصر لما اختار بفطرته إلا الإسلام ولا يمكن توضيح ذلك إلا بالبحث فى بعض أصول الإسلام وقواعده والأغراض التى يرمى إليها الشارع فى تكاليفه .

ويسوغ لى بعد بيان الشيخ أن أستنتج :

أولا : أن الشيخ كان على علم واسع برسالة الدين الإسلامى ومعرفة أسراره . فإنه أخذ من فوره يبين لهم قواعده ، ويشرح لهم مقاصده فى سلامة وحسن أداء ، مما استمالهم إلى إسماع ذلك الشرح الطويل .

ثانيا : أن الشيخ قد اشتق اسم الكتاب من قول أحد الطلبة : يخيل إلى أيها الشيخ أن هذا الدين لا ينافى الفطرة فى شىء وهو اشتقاق غاية فى المحمدة .

ثالثا : أن الذى يترجم حديث النبى الكريم السالف الذكر ترجمة سليمة إلى لغة المتحدث معهم من الإنجليز — لابد أن يكون على إلمام تام باللغة الإنجليزية . . وإلا لما استطاع أن يدخل فى

رؤوسهم معانى هذا الحديث الذي اعتقد انه لا يسهل فهم المراد منه لكثيرين ممن درسوا قواعد اللغة العربية . . وإذا أرادوا معرفة المراد منه فلا غنى لهم عن اصطحاب المعاجم .

وإذا كان الكتاب يقرأ من عنوانه — كما قالوا — فإن اسم الكتاب ليدل دلالة قاطعة على أن الشيخ عالج ناحية من نواحى الدين الإسلامى صعبة العلاج ، فإن إثبات أن الدين الإسلامى هو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها — هو أمر ذو بال لا يعانيه إلا الراسخون فى العلم . . المطلعون اطلاعا كافيا على أسرار هذا الدين وبواطنه .

هذا هو عنوان الكتاب ، وأضيف إلى عنوانه هذا فى سبيل التعريف به إجمالا — فهرسا وضعته أنا أثناء قراءته ، يلقى بعض الضوء على موضوعاته التى تناولها فى بحوثه ، والكتاب ينقسم حسب ترتيب فهرسه هذا إلى قسمين ، قسم عام تناول فيه الشيخ بالبحث موضوعات عدة . وقسم خاص بالقرآن الكريم . . بلغت صفحات القسم العام اثنتين ومائتى صفحة . . . وصفحات قسم القرآن وحده اثنتين وتسعين صفحة (طبعة دار الهلال) .

أما فهرس القسم العام فهو الفطرة والتوحيد . . النبوة والغرض الفطرى منها . . القرآن والفطرة البشرية ، دعاء نصف شعبان . . أعداء القرآن . . هل بنى الإسلام على السيف . . دعوة النبى عامة لجميع المكلفين . . الإسلام صالح لكل زمان ومكان . . أصول

الإسلام . . التوكل غير التقاعد . . صفات المؤمنين . . الرق في الإسلام . . المرأة فى نظر الإسلام . . المساواة . . زوجات النبي . . زواج النبي بامرأة زيد . . الطلاق . . تعدد الطلاق .

أما فهرس القسم الثاني من الكتاب الخاص بالتحدث عن القرآن فقد عنون له بعنوان خاص هو (أثر القرآن فى تحرير الجنس البشرى) وأما فهرسه فهو حرية الفكر قبل الإسلام . . عهد التحرير العقلي . . الحرية فى الشرق الأقصى . . القرآن والحرية . . القرآن يخاطب العقل . . موقف القرآن الكريم إزاء المعجزات . . أهل الردة . . الزنادقة . . جمود المتصدرين للفتوى . . مقام القرآن الحكيم إزاء العلوم والمعارف الكونية . . عهد البحث والنظر . . القرآن والعلوم الحديثة .

ولعلي قد أصبت فى ذكر هذه الفهارس التي لم تعن بإثباتها دار الهلال التى طبعت الكتاب ، ولكننى أنا الذى التقطتها من الكتاب أثناء قراءتى إياه . . أثبتها هنا لتعرف الموضوعات التى عالجها الشيخ فى مؤلفه وأنها حقاً كانت موضوعات جديدة على من تحدثوا فى هذا العهد عن الدين الإسلامى . اللهم إلا الإمام محمد عبده صاحب المدرسة العليا فى فهم الدين على حقيقته وفى تفسير القرآن الكريم . . وكانت هذه الروح التى تحدث بها الشيخ جاويش مقتبسة من تلمذته على الإمام فى حضور درس التفسير بل كان من مريديه الخواص . ولذلك رأيناه فى كتابه (الإسلام دين الفطرة) ناحياً نحو اتجاهات الإمام

فى آرائه الدينية وتوجيهه تفسير الكتاب العزيز بما وعاه منه إما بالمشافهة وإما بما فتحه له — من كيفية السير فى المحاجة الدينية.

ونهاية كلامى ... ا الكتاب هو أنه كان المؤلف الذى قدمه الشيخ إلى مؤتمر المستشرقين فى مدينة الجزائر لما دعته الحكومة المصرية وهو فى انجلترا ليمثلها فى هذا المؤتمر . سنة ١٩٠٥ .

***

ويلحق بهذا النوع التأ فى للشيخ ما قد يرى ظاهرا أنه ليس من التأليف ، ولكنه فى الواقع منه فى الصميم ، ذلك هو تفسيره القرآن الكريم فى مجلته « الهداية » بطريقته التى حببت إلى وأنا طالب بدار العلوم الاطلاع الواسع على تفسير كتاب الله .

كنا نتلقى درسا فى الأسبوع فى تفسير القرآن ، ولكنه كان على الطرق المدونة فى كتب التفاسير ، ولما ظهرت مجلة الهداية رأينا بها طريقة جديدة فى التفسير ، تساءلنا — وقتئذ — عن هذه الطريقة الحديثة الجذابة الخلابة ، وكيف استطاع الشيخ أن يجعلها طريقته فى هذا الركن الأكبر من أركان الدين الإسلامى ، فكان جواب أساتذتنا بالمدرسة أن سبب استطاعته هذه هو أنه تأثر بالأستاذ الإمام فى تفسير القرآن ، وسار على طريقته فى أن القرآن الكريم هو الأساس والغراس لمعرفة أسرار الحياة كلها

وأنه الأصل الذى يرجع إليه فى كل إصلاح ، إن لم يكن بالنص فبالتوسع فى تفسيره توسعا ينتظم شئون الحياة جميعا ، لأنه أنزل لهذه الأغراض الطيبة ، فتفسيره يجب أن يكون فى هذه الاتجاهات المثليات .

لو جمع من تفسير القرآن ما تفرق فى « الهداية » فى كل ماصدر من أعدادها لكان كتابا مستقلا فى تفسير بعض أجزاء الذكر الحكيم ، ولذلك سوغت لنفسى أن أعد ما فسره الشيخ من القرآن فى مجلته — هو من باب التأليفات العلمية .

أما وقد جاء ذكر هذه المجلة التى كانت من مكنوناتى الأدبية وأنا طالب بدار العلوم — فلأذكر عن التعريف بها قليلا من كثير .

رأى الشيخ أن السيد رشيد رضا يصدر مجلة (المنار) وكان يعرف طبعاً أن الذى أوحى إلى الشيخ رشيد بإصدارها ، وساعده بكل أنواع المساعدة — هو الإمام محمد عبده ، فلماذا لا يصدر هو أيضاً مجلة من نوع (المنار) تؤدى رسالة واسعة فى العلم والمعرفة والإصلاح ، وعنده من التأهيل العلمى ماقد يفوق — فى اعتقاده — ما عند الشيخ رشيد .

وبالفعل صدرت المجلة فى المحرم سنة ١٣٢٨ هـ — فبراير سنة ١٩١٠ ، وقد جاء فى مقدمة العدد الأول منها ما يشعر بالأغراض من إصدارها :

«أما بعد . . فإن من يلقى على أحوالنا نظرة تبطنها أو يجيل فيها فكراً فينفذ شعاعه منها إلى الصميم — يرى آفات فاشية وخرافات غاشية . وفوضى ممتدة العرق لم يخل لنا منها شأن» .

والمقدمة طويلة اكتفينا منها بهذا القدر الذى يدل على اتجاه صاحبها فى الإصلاح الذى انتواه باصدار هذه المجلة «الهداية» . . أما أبوابها الثابتة فقد لخصها فى المقدمة أيضاً وهى — أسرار القرآن — اللغة والأدب — شذور علمية — الحوادث والأجيال — العالم الإسلامى — التربية والتعليم — أسـئلة وأجوبتها — الأحاديث الموضوعية — المنبر العام . وقد استقبلتها جميع الصحف العربية بكل ترحيب وتقدير بعد صدور العدد الأول منها .

وقد سد الشيخ بمجلته فراغاً علمياً فى البيئة المصرية ، ولو أنها ستمرت فى الصدور لجنينا منها أضعاف ماجنينا .

* * *

الشيخ المصلح الاجتماعى :

كان الشيخ مجتهداً فى كل ما أسلفت من ألوان علمه ومعرفته ، كان مجتهداً فى تأليفه كتاب (الإسلام دين الفطرة) كما كان مجتهداً فى تفسير كتاب الله .

والآن أتحدث عنه كمصلح اجتماعى فقيه مجتهد ، فتح لنفسه باب الاجتهاد ، اقتداء بالشيخ الإمام .

أتحدث فى ذلك عن أصل كبير أعطاه الشيخ عناية فائقة ، هو إصلاح الأسرة ، وأعتقد أن فيه خير أسس الإصلاح الاجتماعى .

الأسرة :

أسلفت أن الشيخ قد تأثر فى حياته الفكرية والإصلاحية بالإمام محمد عبده . وكان من أثر هذا التأثير ما نراه له فى هذا النوع من الإصلاح .

من الأسرة تتكون الأمة كلها . . فإذا أصلحت صلحت الأمة . وإذا أدركتها العلل والأمراض ساءت حالة المجموع لأنها الغراس الذى ينبت إما ثمراً شهياً ، إذا صلحت ، وإما شوكا مؤذياً إذا فسدت لأنه من رجال العلم والتعليم . وها هو الشيخ يعالج هذه المشكلة التى لا يشك فى أنها هى جميع مواد البناء لشعب قوى متين .

فى سنة ١٣٢٩ — ١٩١١ - عقدت الحكومة المصرية مؤتمراً بمصر الجديدة ليدلى كل من القادرين على الإدلاء — برأيه فى الإصلاح العام . خطب فى هذا المؤتمر أفذاذ مصر ومفكروها كل فيما وقع عليه اختياره . فماذا كان نصيب الشيخ فى هذا المجال الحيوى ؟ إنه اختار الإصلاح الاجتماعى حديثاً له وقال فيه خطبة طويلة لا أريد أن أثبتها كلها كما أثبت خطبته فى التعليم ، وإنما

أثبت منها ما يدل على مجموعها دلالة كافية بما اختاره هو موضوعاً لها محدداً فيه ناحية خاصة رآها هى أجدر الاختلالات الاجتماعية بالإصلاح ، هى موضوع إصلاح الأسرة وهو الذى نشكو منه مر الشكوى إلى يومنا ما دام متروكا بغير إصلاح كامل . وقد تحدث فيه الشيخ منذ قرابة ٥٠ عاماً . أيام كان التحدث الناضج فى الإصلاح الاجتماعى غير ميسر إلا للفاقهين .

وضع الشيخ عنواناً لخطبته هو عنوان يدل على ما فى الخطبة من اجتهاد ، ومن اتجاهات إصلاحية . ذلك العنوان هو « وجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان فى تطبيق أحكام الشريعة الغراء » فالشيخ قد عالج فى هذه الخطبة الإصلاح الاجتماعى بما فى الشريعة الإسلامية من أصول تعين المصلح على استنباط الأحكام الشرعية الصالحة لكل زمان ومكان . والشيخ فى هذا السبيل كان يسير فى خطبته على سنة الأئمة المجتهدين ، وبخاصة مذهب الإمام أبى حنيفة الذى أعرف أنه جعل الاستنباط من القياس أصلا قوياً من أصول مذهبه الواسع الانتشار .

قال الشيخ فى ذلك — « إن للمسلمين قوانين شرعية هى مناط الأحكام ومآخذها .. وقد لاحظ المشرع أنه سيجد للناس قضايا بمقدار ما يجد من الضرورات والحاجات ولذلك وضع قوانين كلية جعلت مرجع جماعات المسلمين فى استنباط ما يناسب طوارئ الضرورة والحاجة من الأحكام .... ويرى الباحث فى شئوننا المتعلقة

بالاجتماع أننا ننحدر سراعاً إلى هوة بعيدة الغور . . . ولو أننا درنا مع هذه المصلحة فى الدائرة التى رسمتها الشريعة لأمنا هذا المصير ولم نقع فيما نحن واقعون فيه . . . إن رعاية الأصلح قاعدة شرعية تكاد حكمتها تلمس بالأيدى فإن فيها من دفع المفسدة عن الأمة ما لايخفى على أولى النظر الصحيح . . . لقد سنت شريعتنا أن نأخذ بالأصلح الملائم للأزمنة والأمكنة حتى لا يكون على الناس حرج ولاضرار . . . فيقول أبوبكر الصديق (الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم فإن أجمعوا رأيهم على أمر قضى به) وكذلك كان عمر يفعل ذلك فإن أعياه أن يجد فى القرآن والسنة نظر هل كان فيه قضاء لأبى بكر فإن وجد قضى به وإلا دعا رءوس المسلمين فإذا اجتمعوا على أمر قضى به » .

هذا كلام فى صميم الشريعة الإسلامية فى الإصلاح العام وانطباق أصولها على ما يتفرع من هذا الإصلاح فى كل زمان ومكان . أما ماحدد به الشيخ موضوعه الذى هو جزء من الإصلاح العام فقد قال فيه : « اكتفى بأن أعرض مظهراً من هذه المظاهر ولنا أن نقيس عليه ألا وهو مظهر الحياة الزوجية وما قيدت به من الأحكام التى قد تنافى فى الوقت الحاضر المصلحة العامة منافاة لا ينبغى السكوت عليها مع وجود المخارج الكثيرة من هذا الحرج إذا نحن رجعنا إلى كثير من علماء المسلمين السابقين . . . وإنما آثرت

عرض هذا المظهر على غيره لأنه قريب التناول من الأذهان ويكاد يكون موضع شكوى كل إنسان . . . إن هذه الجهة من جهات حياتنا الاجتماعية محفوفة بصنوف العنت والأذى التى ما كان ليكون لها وجود لو قدر مستنبطو بعض أحكامها كل ضرورة بقدرها وجعل لكل ذريعة سداً ولكل حاجة حكما » .

ثم يخرج التعميم إلى التخصيص ، فيتحدث عن نوع خبيث من الزوجية ذات اللف والدوران ، والإيقاع بذوات الثراء من النساء ، ويصور ذلك بأن كثيرين من الرجال المحتالين همهم فى الحياة الإيقاع بذوات النعمة باسم الزواج ، يتظاهرون بالجاه والثروة ، فإذا استهوى أحدهم امرأة وعقد لها عليه ، ينقلب مضارباً بما فى يده من عصمتها ، يساومها على قدر من مالها تفتدى به نفسها ، مهدداً إياها — إذا هى لم تجبه إلى مطامعه — بأن تبقى معلقة ، لا متزوجة ولا مطلقة .

ثم يتحدث عن الطلاق الثلاث ، بما أخذت به التشريعات الآن ، بعد عصر الشيخ بأزمان ، من أنه لا يقع إلا طلقة واحدة ، ويبدو أن الشيخ أول من رأى هذا الرأى ، وإذا كان أحد رآه قبله فإننى لا أعرفه .

ثم يتحدث عن الإعسار يدرك الزوج ، والعوز يلحقه ، فلا يجد ما يطعم به زوجته ، ويرى أن التفريق واجب بينهما فى هذه الحالة ، فعسى أن ترزق الزوجة بمن يقوم بإعاشتها ، لأنها لو ظلت

مع هذا الزوج فهى سريعة الانحدار الخالق لتسد جوعتها بنفسها .

ثم ينتهى إلى نتائج بعد تطوافه الطويل فى خطبته . هى :

(١) لا ضرر ولا ضرار .

(٢) الضرورات تبيح المحظورات .

(٣) يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام .

(٤) يختار أهون الشرين .

(٥) درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

(٦) الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف .

(٧) الأمر إذا ضاق اتسع .

(٨) الضرورات تقدر بقدرها .

(٩) لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان .

ثم يخاطب الحكومة بقوله : « دعونا نذكر ماينجم من المفاسد التى تهدد نظام الاجتماع بالانحلال إذا كثر مثل من ضربناهم مثلا من المتزاوجين . وسادت فى المزاوجات هذه الألاعيب . اذكروا ما يصيب الأخلاق والأمن وهما من أخص العناصر فى تركيب الاجتماع من جراء هذه المشاحنات والبليات . اذكروا ما يصيب البنين الذين ينشؤون فى حجور أولئك الأزواج .... اذكروا ما يعود على الأمة من الضعف الأخلاقى العام من بناتها العابثات وبنيها العابثين .... اذكروا أن مستوى الأمة الأدبى إنما يقل بكثرة وجود أمثال هؤلاء الأزواج الذين يجنون على الأوساط التى

يترعرعون فيها . . اذكروا ذلك كله تقدروا معى سبيل الحاجة إلى مراعاة أحوال الزمان والمكان فى تطبيق أحكام الشريعة الغراء » .

كما يرى الشيخ أن مبدأ التحكيم بين الزوجين لازم إذا ساءت العشرة بينهما . وقد نقل من أحد مفسرى كتاب الله الكريم العلامة « ابن كثير » أنه قال فى تفسيره (إن العلماء أجمعوا على أن الحكمين بين الزوجين لهما الجمع والتفرقة . وذلك أخذاً من قول القرآن الكريم : « فإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » .

واختتم الشيخ خطبته بقوله : « هذه صورة لإحدى نواحى حياتنا الاجتماعية عرضتها لأن الخطب فيها عام ، لا تخلو منه قرية صغيرة ، ولا مدينة كبيرة » .

الشيخ المجاهد

جرت العادة أن نصف بالجهاد من لهم مواقف فى الوطنية ، وتحملات قاسية فى سبيل الحرية ، وعندى أن هذا تخصيص بلا مخصص ، فيه بعض التضييق ، لأن المصلح الاجتماعى مجاهد ، والمصلح الدينى مجاهد ، والمصلح العلمى مجاهد — جهادا يختلف فى مقدار ما يصادف المصلح من اعتساف أو لين ، ومن يسر أو عسر ، ومن معونة من أهل عصره أو تنكر له .

فليس المجاهدون السياسيون الأحرار هم الذين لاقوا الشدائد وحدهم ، وإنما التقى بها كثيرون من المصلحين فى الدين كالإمام محمد عبده الذى رمى من الجامدين بالإلحاد ، والفسوق عن الدين ، وكالشيخ عبد العزيز جاويش ، فإنه أيضاً رمى بالكفر الصريح .

إذن الشيخ فى كل أطوار حياته المملوءة إنسانية وإصلاحا — مجاهد مصلح لا يتهيب ، وقد ناله من جراء ذلك النصب والعناء . وقد أسلفت الأحاديث عن جهاده الإصلاحى فى غير الميدان السياسى .

أتحدث الآن عن الشيخ المجاهد السياسى ، الصحفى ، المضطهد المسجون ، المبعد عن بلاده أحد عشر عاما . والحديث عن هذا

الطور من أطوار حياة الشيخ حديث طويل ، أقسمه إلى أقسام أصيلة متتابعة .

***

تلخيص :

لخص أكبر أبناء الشيخ (ناصر جاويش) حياة أبيه ، وقدم بها لكتاب والده (الإسلام دين الفطرة) طبعة دار الهلال ، بعنوان (المؤلف فى سطور) أترك منها الآن نشأته الأولى التى تحدثت عنها فى ابتداء الكتاب ، من المولد إلى التخرج الى احتراف التعليم ، إلى عودته الثانية من انجلترا ، وأثبت فيها حياة الشيخ السياسية الحرة ، التى بدأت من سنة ١٩٠٨ بعد استقالته من وظيفته .

هذا التلخيص هو المرآة الصغيرة التى ترى فيها حياة الشيخ بأوجز وجازة ، وعلى ضوئها سأسير فى كتابة هذه الرحلة الكبرى للشيخ . « قال ناصر » :

- رأس تحرير جريدة اللواء فى ٢ مايو سنة ١٩٠٨ .
- قدم للمحاكمة أمام محكمة عابدين سنة ١٩٠٨ فى قضية الكاملين لنشره مقالا تحت عنوان . . (دنشواى أخرى فى السودان) وقد حكم عليه ابتدائيا وبرئ استئنافيا .
- قدم للمحاكمة سنة ١٩٠٩ بسبب نشره مقالا فى اللواء تحت عنوان (ذكرى دنشواى) وصدر الحكم استئنافيا بحبسه ثلاثة أشهر .

— فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٩ قدم له الشعب وساما فى حفل خاص ، أقيم فى فندق شبرد ، تقديراً لوطنيته .

— فى فبراير سنة ١٩١٠ أنشأ مجلة « الهداية » لإفهام المسلمين أسرار القرآن (وقد تقدم الحديث عن ذلك) .

انشأ المدارس الإعدادية الثانوية والليلية لتعليم اللغة الفرنسية وآدابها للأزهريين (وقد تقدم الحديث عن هذا أيضاً)

— فى سنة ١٩١٠ قدم للمحاكمة بسبب وضعه مقدمة لديوان « وطنيتى » وحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر .

فى سنة ١٩١٢ أبعد الشيخ جاويش إلى تركيا حيث أعاد إصدار مجلة (الهداية) و (الهلال العثمانى) و (الحق يعلو) .

— فى سنة ١٩١٢ تزعم الشيخ جاويش وبعض زملائه أنصار الحزب الوطنى جمع التبرعات ، وإرسال الذخائر وتهريب القواد الأتراك إلى طرابلس لمقاومة الغزو الإيطالى .

فى سنة ١٩١٣ طلبت الحكومة المصرية تسليم الشيخ جاويش لمحاكمته عن تهمة إرسال منشورات ضبطت مع أحد الطلبة المصريين القادمين من تركيا ، وتم تسليمه فعلا للحكومة المصرية وأودع سجن الحدرة ، ثم أفرج عنه .

— فى سنة ١٩١٤ أنشأ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ووضع أساسها ، وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين بالقدس الشريف وعهد إليه بإدارتها .

ــ فى سنة ١٩١٤ سافر الشيخ جاويش إلى انجلترا حيث اتفق مع أحد أغنياء الهنود على إنشاء أسطول إسلامى ، وأثناء ذلك حصل اعتـداء على الخديو عباس حلمى بالآستانة فشعر بأن السلطات البريطانية تنوى القبض عليه لاتهامه فيه فاختفى وتمكن من الهرب إلى باريس .

ــ فى سنة ١٩١٥ أعدت حملة من الجيش التركى لتخليص مصر من الاحتلال الإنجليزى ، واشترك فيها الشيخ جاويش وبعض رجال الحزب الوطنى الذين تمكنوا من السفر خلسة بعد إعلان الحرب .

ــ وفيما بين سنتى ١٩١٥ و ١٩١٨ كان يتنقل ما بين ألمانيا وتركيا والشام ، وقد انشأ مجلات أحداها تصدر باللغة الألمانية باسم 'Die Islamische Welt' وثانية فى اسطنبول باللغة العربية باسم (العالم الإسلامى) وفى سويسرا مجلة باسم Egypte بالاشتراك مع رجال الحزب الوطنى للدفاع عن استقلال مصر من مجلس المبعوثان بالآستانة والريخستاغ بألمانيا فى عام ١٩١٧ كما اشترك فى مؤتمر الدفاع عن الأمم المهضومة الحقوق فى استكهولم .

فى سنة ١٩١٨ غادر الشيخ جاويش ومعه رجال الحزب الوطنى تركيا خفية بعد انتهاء الحرب إلى ألمانيا عن طريق روسيا ، ثم سويسرا ، حيث قاموا بالاتصال بالوفد المصرى بباريس وقدموا له مذكرة بما قاموا به فى أوربا .

— فى سنة ١٩٢٢ استدعاه الغازى مصطفى كمال باشا وعينه رئيساً للجنة الشئون التأليفيه الإسلامية بأنقرة .

— وفى سنة ١٩٢٣ حصل خلاف بينه وبين الغازى مصطفى كمال فى شأن إلغاء الخلافة وكان الدستور قد أعلن بمصر فحاول العودة للوطن ، وتمكن من العودة إلى مصر خفية فى ١٣ ديسمبر سنه ١٩٢٣ ، ونشرت جميع الصحف مقالا تحت عنوان (تجديد العهد) بتوقيع الشيخ جاويش وبعد عشرة أيام صرحت الحكومة للشيخ جاويش بالإقامة بمصر وكان يتولى الوزارة وقتذاك يحي إبراهيم باشا . (وقت أسلفت الحديث فى هذا الخطاب) .

— فى سنة ١٩٢٥ عين مراقبا للتعليم الأولى بوزارة المعارف العمومية وقام باصلاحاته المعروفة .

— فى ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ توفى رحمه الله بعد حياة حافلة بالجهاد والوطنية وسنه لا تتجاوز الثالثة والخمسين .

زيادات وتعليقات

إن ما كتبه السيد ناصر جاويش عن والده هو وقائع ملخصة ومفيدة فى موضوع ترجمة أبيه فى منافيه . وأزيد عليها فى ملخص حياة الشيخ ما وجدته فى بعض المراجع — ومن ذلك مارواه عنه أمير البيان شكيب أرسلان فى تعليقاته على كتاب (حاضر العالم الإسلامى) ص ١٢٤ من الجزء الأول) من أن الشيخ جاويش كان أثناء إقامته بالأناضول يقوم بوظيفة كاتم السر للمسلم

الكبير الشأن السيد السنوسى ، وكان يكتب له كل مايحتاجه من تقريرات أو مدونات . ومن ذلك أن السيد السنوسى عهد إليه بتنقيح شروط الصلح التى قدمها الطليان فى حروبهم مع دولة الأتراك . المعروفة بحرب (طرابلس الغرب) وكان للسيد السنوسى رأى كبير فى وضع هذه الشروط بما كان له من الاعتبار الكبير عند الأتراك حكومة وشعبا . . . ولأن الحرب كانت فى بلاده الأصلية (طرابلس الغرب) التى كان أخوه السيد محمد المهدى ملكا عليها يومئذ .

جاء فى كلام السيد ناصر عن والده ذكر لقضية تعرف بقضية المنشورات ولم يفصل فيها شيئاً . وقد وقفت على بعض تفصيل لها هو أن الذى كان يحمل المنشورات من تركيا إلى مصر شاب مصرى اسمه (أحمد مختار) وكانت المنشورات طعناً فى حكومة مصر القائمة يومئذ برياسة (محمد سعيد باشا) وقد وقع للشيخ جاويش من جرائها ماذكره ولده .

جاء أيضاً فى كلام السيد ناصر أن والده اتهم فى قضية الاعتداء على الخديو عباس فى تركيا سنة ١٩١٤ ولما شعر بأن السلطات البريطانية ستقبض عليه — وكان يومئذ فى انجلترا — فر إلى باريس ، وأزيد على ذلك أن اتهام الشيخ جاويش بالتحريض كان من الخديوى نفسه ، لأنه كان يسىء الظن به إلى أبعد الحدود. ويحدثنا أحمد شفيق باشا صاحب (مذكراتى فى نصف قرن) .

يحدثنا فى كتابه (أعمالى بعد أقوالى) بأن أحد المصريين سعى فى الصلح سنة ١٩١٧ بين الخديو عباس وبين الشيخ ، وقد أقام له الخديوى مأدبة غداء ومع هذا ظل يحس بأن الشيخ ليس مخلصا له

ومن الزيادات أيضا على ما قاله ولده أن الشيخ جاويش اتهم بالتحريض على الاعتداء الذى وقع بمحطة مصر على سعد زغلول باشا فى ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٢٤ وهو مسافر إلى انجلترا للمفاوضة فى القضية المصرية . وقد سئل فى ذلك كشاهد — أحمد شفيق باشا السالف الذكر كما روى فى كتابه (أعمالى بعد أقوالى) هل كان الشيخ عبد العزيز جاويش يأخذ مرتبا من الخديو أيام كانا بمصر . فكان جواب شفيق باشا بالنفى المطلق وأن الخديو كان يتهمه بالتحريض على الاعتداء عليه .

ومن الزيادات أيضاً على ما قاله ولده — أن الشيخ وأعضاء الحزب الوطنى لما علموا بأن وفداقام من مصر إلى باريس سنة ١٩١٩ للمفاوضة فى القضية المصرية مع مؤتمر السلام — أرسلوا مذكرة إلى هذا الوفد يقفونه فيه على جهودهم فى أوروبا لحل القضية المصرية . وذلك ليستنير الوفد المصرى بآرائهم باعتبار أنهم منفيون فى أوربا زمنا طويلا ويعرفون مالا يعرفه غيرهم من الاتجاهات نحو حل القضية المصرية .

هذه لمحات تلخص لنا حياة الشيخ السياسية . وبعدها أفصل

القول فى هذه الرحلة الكبرى من تاريخ الشيخ السياسى المجاهد .

٣ — الميدان السياسى :

عرفت من الخلاصات التى تقدمت أن الشيخ بدأ عمله فى الميدان السياسى الصحفى من اليوم الثانى من فبراير عام ١٩٠٨ ، فكيف كان حال هذا الميدان ؟

كانت كلمة (الوطنية) فى عهد الشيخ كلمة مخوفة ، لا يسلك طريقها إلا أحرار النفوس ، وأباة الضيم . ولذلك كان يضع الشعب هذا الصنف من رجال هذه الوطنية فى موضع الهامة من الإنسان . لأنه كان يرى فيهم صورة فدائية بالمال والراحة والطمأنينة ، بل وبالحياة إذا اقتضى الأمر . ولذلك كانوا قلة يعدون عدا . إنهم فى عهدهم هم الزعماء والقادة . وما أقل عدد الزعماء فى كل عهد .

فى هذا الطور من حياة الوطن كان الإنجليز على أشد قسوتهم فى معاملة الوطنيين بمختلف أساليبهم .

كان (لورد كرومر) هو العميد الإنجليزى ، وكان هو الحاكم المطلق ، الآمر الناهى ، دون أن يقف أوامره ونواهيه أية قوة ، حتى سلطة حاكم البلاد . الخديو عباس . الذى كان بحاجة قصوى إلى أسناد قوية تخفف عنه وطأة هذا العميد .

اتخذ الخديو لوقايته — إلى حد ما — بعض الوقايات :

أولا — جريدة المؤيد التى كانت تناصره من المبدأ إلى المنتهى .

ثانياً – الإمام الشيخ محمد عبده وقد كان على صفاء أول الأمر مع الخديو الذى كان يعمل بمشورة الشيخ إذا تأزمت الأمور بينه وبين العميد . كما وقع فى مسألة قاضى القضاة التركى الذى أراد العميد إلغاء وظيفته ، وقطع الصلة القضائية بين مصر وتركيا ، وتعيين قاضى قضاة مصرى بدله ، ولم يجد الخديو إلا أن يأخذ رأى الإمام الذى أفتاه بأن يقول للعميد إن وجدانى لا يسمح بأن أغير رئيس الأمور الشرعية ، لأن ذلك من حق السلطان الذى هو خليفة المسلمين . ولما التقى الخديوى بالعميد ذكر له الخديو كلمة (الوجدان) ، فاقتنع ، وأقلع عن عناده . وهذا مثل من أمثلة أنقذ فيها الإمام بثاقب رأيه – الخديوى من استبداد العميد البريطانى (الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام ص ٥٧٦) .

ثالثاً – مصطفى كامل وبعده محمد فريد والحزب الوطنى كله . فلقد كان الخديو يعتمد على ثورة مصطفى كامل فى تخفيف حدة العميد عليه ، ويتخذ منها سلاحاً ودريئة أمام العميد ، لأن مصطفى رجل الشعب وثائره ، فإذا انضم إلى كفة رجحها ولو بعض الترجيح .

استمرت السياسة على هذا اللون إلى أن وقعت حادثة (دنشواى) التى أطاحت بالعميد ، وكانت سبباً فى بعد صيت مصطفى كامل ، فى توفيق الله له فى التشهير بسياسة انجلترا التى تزعم العدالة فى حكم مصر ، وفى ترقية حال أهلها .

إلى هنا كان الحزب الوطنى هادىء البال . وكانوا يصفون عهد كروم بأنه عهد سياسة الخلاف بين الإنجليز وبين الخديو . فماذا جد بعد ذلك ؟

رأت انجلترا أن تغير سياستها فى مصر فعينت عميدها الجديد (الدون غورست) على هذا الأساس الذى سموه سياسة الوفاق ، التى رأى الخديو بعدها أن يماشى السياسة الإنجليزية على هواها ، ما دامت هى على وفاق معه . وكانت هذه السياسة مع الأسف طعنة نافذة فى جنب الحزب الوطنى ، مما دفعت بالزعيم محمد فريد أن يصف الخديوى فى أول خطبة له بعد هذه السياسة ، بأنه (جبان) .

دور سياسة الخلاف بين انجلترا ومصر كان يمثله اللورد كرومر من جانب الإنجليز ويمثله الحزب الوطنى من جانب المصريين . وقد انتهى باقتلاع الطاغية العنيد . وقد كان الخديو فى هذا الدور صديقاً لرجال الحزب الوطنى كما أسلفت .

هناك دور آخر يسمونه فى لغة السياسة (دور الوفاق) . فما حقيقة هذا الدور وما أغراضه ؟

لقد كان التصرف فى اقتلاع اللورد كرومر من حكم مصر تصرفاً قصدت به انجلترا تهدئة الخواطر الهائجة ليس غير فهو عمل لذر الرماد فى العيون لا أكثر ، حتى يقال إنها عادلة فى تصرفاتها .. ولذلك أوعزت إلى ممثلها الجديد (السير الدون غورست) الذى

جاء بعد لورد كرومر — بأن يتظاهر بمظهر الوفاق مع الخديو وألا يقف منه موقف العناد كما كانت السياسة أولا . وقد نفذ هذا العميد الإنجليزى ما أوحت به إليه دولته ، فعرف هذا العهد بعهد الوفاق مع حاكم مصر .

كان هذا الوفاق مخدراً وقتياً لم يلبث أن صحا القوم من تخديره ، وإذ به حكم إرهاب كما كان سابقه ، والفرق بينهما إنما هو فى الأسماء المنتحلة ، والصفات المزيفة ، لا فى الحقيقة والواقع ، فإن الوطنيين أمثـال الزعيم محمد فريد ، ومحرر صحف الحزب الوطنى الشيخ عبد العزيز جاويش . وبقية هيئة هـذا الحزب ، المحترم — لم يذوقوا ألوان الاضطهاد بصورة بشعة إلا فى هـذا الدور ، فقد كان من نصيب محمد فريد والشيخ جاويش السجن ثم الإبعاد وكان من نصيب أكثر بقيته الاعتقالات المستمرة ، وقد ظهر مع الأسف أن الخديو قد اطمأن إلى هذه السياسة ، لأنها لم تـكن تقف فى سبيل أغراضه كما كان يقف اللورد كرومر من قبل . وقد ترك الوطنيين يذوقون ألوان العذاب وهو يرى وينظر دون أن يمد لهم يدا ، ولذلك وقعت الجفوة بينه وبين الشيخ جاويش من هذا العهد ، وقد أسلفت الإشـارة إليها باتهام الخديو — الشيخ بأنه من المحرضين على الاعتداء عليه بالآستانة ، وبأنه لا يزال منه على حذر حتى بعد أن توسط أحد المصريين بينه وبين الشيخ فى الصلح سنة ١٩١٧ وهما معا بتركيا ، وبعد أن أدب له الخديو

مأدبة غداء ظن الخديو بعدهـا أن قلب الشيخ قد صفا له . ولكن الحقيقة كانت غير ذلك كما سلف بيانه .

هذه هى الوطنية فى هذه الحقبة ، وهذه صور ما لاقاه رجالها من سياسة الوفاق التى كانت أشـد وطأة على زعماء الوطنية من سابقتها ، سياسة الخلاف . وبالإيجاز فقد كانت هذه سياسة الإنجليز فى مصر فى هذا الظرف العصيب .

فى هذا العهد الحافل بالاضطهادات ألقى الشيخ عبد العزيز جاويش دلوه فى دلاء الوطنية . فـكان من شأنه ما سأقصه :

* * *

٤ — اختيار الشيخ

استخلف الحزب الوطنى الشيخ ليحل محل مصطفى كامل فى تحرير جريدة (اللواء) ولى هنا وقفة أمام هذا الاستخلاف الذى أحدث دوياً كبيراً فى وقته لغرابته على الملأ المصرى يومئذ من كل نواحيه . فأولا أن الوظائف الصغرى كانت تعبد ويعض عليها بالنواجذ . فما ظننا بوظيفة كبرى هى وظيفة المفتش الأول للغة العربية . . ما ظننا بها وقد تركها صاحبها لا أقول مختاراً وحسب ، بل تركها برغبة أكيدة بينها فى أول مقال له « باللواء » كما بين كثيراً من مراميه فى هذا المقال الذى سأثبته فيما بعد . ثانياً أن اختياره لهذا العمل الأكبر بعد الزعيم الأول ليحمل الدلالة القاطعة على

ماكان للشيخ من تقدير وطنى وأدبى معاً فى وقت كان فيه الحزب الوطنى هو حزب الثقافات العلمية ، وحملة الأقلام الوطنية ، ومؤسس الندوات السياسية ، وصاحب الدراسات الفائقة لقضية مصر بل وقضية المسألة الشرقية . . وإذن ماهى عوامل هذا الاختيار الغريب فى بابه ووقته .

الحديث فى مثل هذه المسائل الحساسة لابد أن يرد إلى أقوى مراجعه ثقة وأحفلها صدقا . ولا أرى فى مراجعى فى هذا الشأن ماهو أفضل من قول كابر جليل من رجال الحزب الوطنى منذ شبابه . هو الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه (محمد فريد ص ٥٦) :

« فى منتصف سنة ١٩٠٨ اختار الفقيد (محمد فريد) لرياسة تحرير (اللواء) المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش . وكان قد تعرف به لأول مرة فى مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ ، وعرفه بمصطفى كامل سنة ١٩٠٦ بباريس ، فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية . فلما رأى أن اللواء فى حاجة إلى رئيس تحرير كفء لهذه المهمة عرضها على الشيخ عبد العزيز جاويش وكان وقتئذ مفتشاً بوزارة المعارف فقبلها وبدأ يكتب فى اللواء يوم ٣ من مايو سنة ١٩٠٨ » ...

لى هنا وقفة كذلك فى قول الأستاذ الرافعى (فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية) فإن هذا التعبير من هذا الأستاذ الخبير ليدل بأوضح الدلالات على أن الشيخ وهو موظف كان على

صلة كبرى بالوطنية ورجالها الأعلين ، بل أنه كان من رجالها فعلا منذ هذا التعارف ، وأبرئ فكرى من الشطط إذا أنا جزمت بأنه كان بين الشيخ وبين الزعيمين مقابلات سرية . فى الوقت الذى كان يتبرأ الموظف من ابنه إذا هو سلك سبيل الوطنية ، ومحبة الوطن ، محافظة منه على وظيفته التى هى أداة عيشه الرتيب . الشىء الذى صبغ الموظفين يومئذ بصبغة العزلة والانقباض عن كل مايشتم منه ريح الوطنية ، وأتم حديثى فى وقفتى هذه بكلمة (كفء) التى جاءت فى كلام الأستاذ الرافعى كصفة لازمة لمن يخلف مصطفى فى تحرير لوائه . بحث عن صاحبها محمد فريد فلم يجدها إلا فى الشيخ عبد العزيز جاويش . والآن لا غنى لى إطلاقا عن أن أثبت هنا أول مقال للشيخ فى اللواء لنعرف منه المعانى الكبرى التى احتواها ، مما يعد من مفاخر الشيخ ، وبالإجمال فإن هذا المقال من ملهمات الشيخ مما تفيد قراءته ناشئتنا كبريات الفوائد علماً وخلقاً وتاريخاً وطنيا ، وهذا نصه (اللواء ٣ من مايو سنة ١٩٠٨) :

« بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة ، ومطيتها الدهان والتلبيس ، فى أسواقها النافقة تشترى نفيسات النفوس بزيوف الفلوس ، وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرءوس ، وبيمينك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة فى القول ، حياة الجهر بالرأى ، حياة الإرشاد العام ، حياة الاستماتة فى سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة . أستقبل هذه الحياة

بعد أن قضيت في سابقتها ثماني حجج بلغت فيها ذلك المنصب الذي كنت فيه ما بين محسود عليه ، ومرجو فيه ، أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر منبرياً في ميدانها ، فإما إلى الصدر ، وإما إلى القبر ، موقناً بما أعد الله لعباده العاملين المخلصين من الظفر والفتح المبين عارفاً أن :

الحي لا يموت إلا مرة والموت أحلى من حياة مرة

وكيف لا نقدم من أنفسنا قرابين بين أيدي أهرام هذا القطر ونيله . أم كيف لا نصرف كل مرتخص وغال في سبيل تحريره ، وقطع اليد الغاصبة له جزاء بما كسبت ، فلنتمسك بذلك المبدأ الشريف ما حيينا . ولنعتصم به ما بقينا ، ولنرفع أصواتنا حتى نطرق بها أبواب السماء ، فنستنزل المقت والسخط على من دخلوا بلادنا ، وقبضوا بأيدي جبروتهم على نواصينا ، واستخدموا في سبيل إصابة غرضهم أفرادا إذا ما لقوكم قالوا إنا معكم ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين .

سيسير اللواء كما كان عليه ، خادماً للأمة المصرية ، مجاهدا الإنجليز ما بقوا في بلادنا ، حاثاً على الفضيلة والأخلاق الكريمة ، داعياً إلى توحيد عناصر الأمة على اختلاف مللها ونحلها ، وتباين مشاربها ولهجاتها ، فاللهم أسألك لساناً ناطقاً بالصواب والحكمة ، وقلماً لا جولة له في ميادين القحة ، ولا علم له بمعاهد الفحش

والسباب ، فما أحوج الأمة إلى كلمة حق يستمعونها ، وجميل عظة يعونها ، وما أقمن الجرائد أن تتضامن وتتعاون على البر والتقوى ، وما أخلقها أن تجتمع حتى تكون يداً واحدة على أعدائها ، يحذرونها ويخشون بطشها ، وما أحراها أن تعلم أنها بتفرقها وتخاذلها إنما تشمت عدواً مبينا ، وتكمد صديقاً شفيعا ، فأرسل اللهم على قادة هذه الأمة ومرشديها من عندك روحاً يجمع شتيتها ، ويوحد كلمتها ويعصم أقدامها من الزلل ، وآراءها من الخطأ آمين » .

***

٥ — محاكمات الشيخ :

استمر الشيخ فى رياسة تحرير صحيفة الحزب الوطنى من أول مايو سنة ١٩٠٨ إلى فبراير سنة ١٩١٢ على سنته هذه التى ترجم عن كنهها هذا المقال ، وكانت هذه كلها محاكمات جنائية انتهت به إلى غيابات السجون . . ثم إلى النفى والتشريد .

بدأت محاكمات الشيخ من أول سنة رأس فيها تحرير (اللواء) أو بالتعبير الأدق بعد شهر من عمله . فقد قدم لأول محاكمة فى شهر يوليو سنة ١٩٠٨ فى قضية عرفت باسم قضية (الكاملين) . خلاصتها أنه وقعت فى بلدة الكاملين بالسودان ثورة برياسة زعيم يدعى الشيخ عبد القادر . . فجردت عليه الحكومة قوة من الجيش نكلت بالثائرين وقتلت عدداً كبيراً منهم وقدمت الباقين للمحاكمة

فصدرت عليهم أحكام مختلفة منها الإعدام . . وقد نشرت (اللواء) هذه الأنباء تحت عنوان (دنشواى أخرى فى السودان) فعدت الحكومة هذا النشر إهانة لوزارة الحربية واتهمت الجريدة بأنها بالغت فى نشر الخبر . . وقدم الشيخ إلى المحكمة فحكمت ببراءته . وهذه هى المرة الوحيدة التى برئ فيها الشيخ .

كتب الشيخ مقالة فى اللواء بعنوان (ذكرى دنشواى) فى ٢٨ من يونيه سنة ١٩٠٩ ندد فيها بالقاضيين المصريين اللذين كانا من قضاة دنشواى (بطرس غالى باشا رئيس المحكمة المخصوصة ، وأحمد فتحى زغلول باشا أحد قضاتها) فحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر ونفذ هذا الحكم فور صدوره . فما كان موقف هذا الشعب الكريم إزاء هذا الحكم . . وبأى شىء حكم هذا الشعب حكمه على الشيخ بعد الحكم بسجنه . إن لذلك قصة وطنية طريفة جد الطرافة .. تلهمنا وعى هذا الشعب المصرى الذى بلغ يومئذ درجة كبرى فى النضج وتكريم الزعماء .

ارتفع الشيخ إلى قمة الزعماء فى نظر الشعب وصار فى صفوف الزعماء الأعلين . . وفى ذلك يروى لنا شاهد عيان هو المغفور له الأستاذ على الغاياتى فى تعليقاته على ديوانه (وطنيتى) طبعة سنة ١٩٤٧ ص ٧٩ ، ما يأتى :

فى يوم الاثنين ١٤ شعبان سنة ١٣٢٧ — ٣٠ أغسطس سنة ١٩٠٩ أى بعد الحكم على الأستاذ بخمسة أيام قامت مظاهرة وطنية

كبرى بحديقة الأزبكية فى الساعة الخامسة مساء ، وكانت مظاهرة استياء من الحكم وانعطاف على السجين الكريم ، وألقيت فيها الخطب المناسبة واقترح عمل وسام يشترك فيه الشعب يسمى « وسام الشعب » ليتقلده الأستاذ يوم خروجه من السجن فى احتفال حافل ، فتهافت الناس على الاكتتاب وتألفت لجان فى سائر البلاد باسم « لجان الوسام » وما زال باب الاكتتاب مفتوحا حتى تم صنع الوسام على أجمل شكل ، وقلده الأستاذ يوم خروجه من سجن الحرية فى حفلة شائقة أقيمت لتكريمه بفندق شبرد فى الساعة الرابعة والنصف من مساء ذلك اليوم المشهود ، وكانت الشوارع المحيطة بالفندق غاصة بالقادمين والمتظاهرين محيين الأستاذ متيمنين بطلعته . وصادف فى تلك الساعة أن مر من أمام الفندق سمو ولى العهد ، ثم سمو والده الأمير عائدين من سراى عابدين إلى سراى القبة ، وقد رأيا انعطاف الأمة بأسرها على خادمها الأمين ، وهتاف الجماهير له بالدعاء والحب الصميم . أما هذا اليوم العظيم يوم خروج الأستاذ من السجن والاحتفال بتكريمه فهو يوم الاثنين ٩ ذى القعدة سنة ١٣٢٧ — ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٠٩ » .

هذه قصة (وسام الشعب) . . . فماذا كان هذا الوسام وما أوصافه . يحدثنا فى ذلك السيد على الغاياتى فى ديوانه السالف الذكر ص ٨١ بما يأتى :

جاء هذا الوسام آية من آيات الوطنية الدالة على فضل الأستاذ

بأجمل معنى وألطف إشارة : وهو مؤلف من ثلاث قطع ذهبية ، نقش على الأولى رسم الأهرام ، وكتبت تحت الرسم هذه العبارة (تذكار الشعب إلى الشيخ عبد العزيز جاويش اعترافا بوطنيته الصادقة) والثانية وهى أكبرها حجما رسم عليها نبات كان يتخذه القدماء رمزاً للفوز والنصر ، ونقشت فيها هذه الآية الكريمة (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) والثالثة هلال فى وسطه نجم . وقد نيطت هذه القطع الثلاث بوشاح من الحرير الأحمر والأبيض مرصعة كل واحدة منها بالأحجار الكريمة ترصيعاً جميلا » .

خرج الشيخ منتصراً بالشعب الكريم من هذه المحنة ، لترميه الحكومة المصرية أو حكومة المحتلين — فى محنة أخرى عوقب فيها بالسجن أيضاً سنة ١٩١٠ .

الشيخ على الغاياتى صاحب الديوان المذكور — كان من شعراء الحزب الوطنى يومئذ — ولما أراد أن يجمع من قصائده الوطنية مايطبعه ديوانا له ، رأى العظيمان محمد فريد بك والشيخ عبد العزيز جاويش أن يلقيا إليه لفتتين كريمتين منهما . . فكتب كلاهما مقدمة لهذا الديوان كانت سبباً فى محاكمة الرجلين وسجنهما والحديث عن ذلك بالنسبة لمحمد فريد مبسوط فى ترجمته التفصيلية بقلم الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى ، أما الحديث عن الشيخ جاويش فى هذه القضية فهو أنه كتب مقدمة هذا الديوان بعنوان

(الشعر والشاعر) ومن عجب أن هذه المقدمة الأدبية البحتة هى التى حبس بسببها الشيخ ثانية ثلاثة أشهر . وهذا يعطينا صورة مما كان يعامل به الوطنيون يومئذ من حكومات كانت تخدم الاحتلال ليس غير . . اتصل بذلك إلى إطفاء الجذوة الوطنية التى أوقدها فى الأفئدة مصطفى كامل وخلفاؤه من بعده . . وقد أثبت نص هذه المقدمة فيما سبق ، فى فصل (الشيخ الأديب) .

هذه محاكمات الشيخ ، وهذه منزلته عند الشعب بعد خروجه من غيابات السجون .

وأذكر فى هذا المقام ماشاهدته بنفسى من تقدير الشعب للشيخ

أول ماعرفت منزلة الشيخ فى قلوب الشعب أن كنت أشهد أنا واخوانى الطلبة حفل افتتاح العام الهجرى سنة ١٣٢٨هـ — ١٩١٠م وإذ بزوبعة شعبية خارج دار التمثيل العربى للشيخ سلامه حجازى سمعناها مدوية قوية ونحن بداخل الدار . ثم صارت تعلو وترتفع إلى أن سمعنا الهتافات تشق عنان السماء بحياة الشيخ عبد العزيز جاويش وتحيته وما كدنا نحن الذين بالداخل نلمح الشيخ وقد حمله الشعب على أكتافه ليوصلوه إلى داخل الدار حتى أخذتنا نشوة من الفرح بالغة ، وهنالك اختلط الحابل بالنابل وتكتل الشعب كله بداخل الدار لتحية الشيخ المحمول على الأعناق . وانطلقت منا الهتافات والتحيات أقوى مما كنا نسمعه خارج الدار . لأننا اختلطنا جميعاً وصرنا كتلة واحدة . . . امتزجت

فيها الطبقات وتكتلت فيها الجماعات واستمرت هذه الحال طويلا إلى أن تمكن الشيخ من الجلوس فى مكانه المخصص له مع أعضاء الحزب الوطنى ... الذى كان من عاداته الحتمية إحياء هذه الذكرى الهجرية كل عام ... وكانت من أحفل ذرياته الوطنية خطابة وشعراً، وبعثاً للهمم، وإيقاظاً للأفئدة، وقد كنت أظن إلى ليلة هذا الحفل أن الشيخ مقدر قدره عند المتعلمين وطالبي العلم يومئذ، ولكن الجديد فى هذه الليلة هو ما عرفناه من هذا التقدير العام من الشعب للشيخ الكريم.

وكان فى النداءات والهتافات ما عرفنا أن الشيخ معروف بكل خصائص المعرفة، مما دلنا كذلك على أن الوعى القومى آخذ فى النماء من أيام مصطفى كامل ولا سيما يوم جنازته التى كانت مظاهرها الشعبية معدومة الند والنظير ... وصدق المثل القائل .. إن يوم موت الأبطال هو يوم ابتداء حياتهم الكبرى . وقد صدق كل الصدق الرجل العالم المصلح قاسم أمين فى قوله، لقد خفق قلب مصر يوم تنفيذ حكم الإعدام فى شهداء (دنشواى) ويوم وفاة الإمام محمد عبده .. ويوم وفاة مصطفى كامل .

* * *

٥ — مناهج الأحزاب والصحف :

مناهج الصحف فى هذه الحقبة هى مناهج أحزابها التى توجهها . ولذلك أرى أن أثبت — للتاريخ — مناهج الأحزاب، ومنها

نعرف اتجاهات الصحافة فى هذا الوقت الذى نتحدث عنه . اللهم إلا جريدة واحدة لم يكن لها حزب تترجم عن أغراضه ، هى جريدة المقطم لأنها كانت جريدة الاحتلال ، وتأييد سياسة الإنجليز .

كان عام ١٩٠٧ هو عام ميلاد الأحزاب الثلاثة التى أذكر مناهجها .

(١) الحزب الوطنى :

أسسه مصطفى كامل فى ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، وهذه مبادئه : —

— استقلال مصر كما قررته معاهدة لوندرة . . . سنة ١٨٤٠ ، مع الاستقلال الداخلى عن تركيا .

— إيجاد دستور فى البلاد بحيث تكون الهيئة التنفيذية مسئولة أمام مجلس نيابى تام السلطة كمجالس النواب فى أوربا .

— احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التى ارتبطت بها الحكومة المصرية لسداد الديون وقبول مراقبة مالية كالمراقبة الثنائية .

— الصراحة فى انتقاص الأعمال الضارة وتشجيع الأعمال النافعة للحكومة المصرية .

— العمل على نشر التعليم على أساس وطنى صحيح بحيث ينال الفقراء منه نصيبهم .

— ترقية الزراعة والصناعة والتجارة بما ينهض بالبلاد اقتصادياً لأنها زعيمة الشرق .

— بث الشعور الوطنى فى الشعب وإفهامه حقوقه الوطنية ودعوته للائتلاف والتآخى بين العنصرين المكونين للشعب (المسلمين والأقباط).

— العناية بالشئون الصحية عامة وبخاصة الطبقات الفقيرة من الأمة.

— بث روح المحبة بين المصريين والأجانب.

— تقوية العلائق بين مصر والدولة العلية.

— الدعاية لمصر فى الخارج ونفى كل شبهة عنها يلصقها بها خصومها.

(ب) حزب الأمة :

وكذلك ألف حزب الأمة من جماعة الأعيان المساهمين فى جريدة (الجريدة) برياسة محمود سليمان « باشا »، وزعامة حسن عبد الرازق « باشا » ورئيس تحرير هذه الجريدة هو أحمد لطفى السيد « باشا »، وهذا هو منهاج الحزب المذكور : —

— معاضدة حركة التعليم ونشره بكافة الطرق وجعله إجبارياً فى المرحلتين الأوليين.

— الحصول على حق البلاد الطبيعى فى الاشتراك مع الحكومة فى وضع القوانين والمشروعات العامة وتوسيع اختصاصات مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية تدريجياً إلى إيجاد مجلس نيابى تتحقق فيه المسئولية الوزارية.

— توسيع نطاق الجمعية الزراعية توصلا إلى تقدم البلاد الزراعى وعدم إهمال الصناعة والتجارة والسعى لترقيتهما .

(ح) حزب الإصلاح

وكذلك ألف حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية بزعامة الشيخ على يوسف وكان وكيله أحمد حشمت ناظر المعارف ولسان حاله جريدة (المؤيد) وهذه هى مبادئه :

— تأييد السلطة الخديوية فيما منحتها الفرمانات الشاهانية لاستقلال مصر الإدارى .

— الاعتماد على الوعود والتصريحات التى أعلنتها بريطانيا عند احتلالها القطر المصرى ومطالبتها بتحقيقها مطالبة مستمرة .

— المطالبة بمجلس نيابى مصرى يكون تام السلطة فيما يتعلق بالمصريين والمصالح المصرية .

— أن يكون التعليم الابتدائى عاما ومجانا لينال كل أبناء الوطن منه نصيبهم .

— أن تكون اللغة العربية هى لغة التعليم فى البلاد .

— أن تعطى الوظائف فى المصالح المصرية للوطنيين بمقتضى الكفاءة مع تقليل عدد الأجانب بقدر الإمكان وأن يحل الوطنيون محلهم شيئاً فشيئاً .

— أن تكون محاكمة الأجانب جنائياً أمام المحاكم المختلطة[1] .

---

(١) المرجع : كتاب تكوين الصحف المصرية لغطاس عطارة .

٦ — سياسته الخارجية :

أجملنا فى سيرة الشيخ جاويش فى وطنياته المصرية ما أسلفنا . وأرى بعد ذلك أن تعرف سياسته الخارجية نحو ما كانوا يسمونه (دولة الخلافة العظمى) أو الحكومة التركية . . ورأى الشيخ فى ذلك هو رأى الحزب الوطنى الذى أسسه الزعيم مصطفى كامل . وكان يرى هذا الزعيم المحافظة على هذه الخلافة لا لأنها تحكمنا ، ولكن لأنها المظهر الأقوى للإسلام فى ذلك الوقت . وفى منهاج الحزب الوطنى الذى أسلفته مايدل على ذلك بأقوى بيان . فقد وضع مصطفى فى منهاج حزبه (تقوية العلائق بين مصر والدولة العلية) وقد كان الشيخ على هذا الرأى كذلك . كما كان بعض ساسة أوربا من أصدقاء مصر والحزب الوطنى على هذا الرأى أيضا ومنهم (مستر بلنت) فقد جاء فى مذكراته (وقد نصحت لهم بأن تكون صلات المصريين بالدولة العثمانية حسنة بوجه خاص وذلك لأن العلاقة التى تربط مصر بالأمبراطورية العثمانية هى فى الواقع الضمان الحقيقى لسلامتها من مطامع الإنجليز[1]) .

كانت هذه هى سياسة ذلك الوقت نحو الدولة التركية . أثبتها لأحيط ترجمة الشيخ بكل ما فى الاستطاعة إثباته .

---

(١) كتاب محمد فريد للرافعى ص : ١١٨ .

٧ — قوميته العربية :

هى القومية العامة التى تنتظم بلاد العروبة والإسلام ، وكما أدى الشيخ لوطنه الخاص — مصر — ما استطاعت أن تؤديه الطاقة البشرية — كذلك أدى لوطنه العربى ما قدره له الملأ العربى حق قدره يومئذ . وبماذا يستطيع الشيخ أن يخدم هذا الوطن العام المترامى الأطراف بأكثر من قلبه الكبير . وفكره الناضج ، وقلمه السيال ؟ لقد سخرها فى خدمة (الاسلامية) وإيقاظ مشاعر أصحابها ، ودعوتهم إلى الاتحاد . ودعوة العرب إلى الاتحاد هى التى توارثها المصلحون بعضهم عن بعض ، لأنها هى السبيل الوحيد لإعادة مجدهم وإرجاع أيامهم .

كما وقع الآن بين إقليمى الجمهورية العربية المتحدة ونرجو الله المزيد .

. لا غنى لى عن أن أثبت من آثار قلم الشيخ فى ترجمة حياته — بعض ما كتبه فى هذا الشأن . كما أثبتِ له مثل ذلك فيما تقدم عن قضية مصر .

والترجمة تصوير . وخير التصوير ما تعاون فيه المصور والمصور .

قال يصف العالم الإسلامى والاستعمار سنة ١٩١١ بعنوان (العالم الإسلامى فى عام) . بالجزء الثانى عشر بمجلة « الهداية » فى سنتها الثانية :

استهل العام الماضى بعقد محالفة بين أسبانيا ومراكش ولولا ضغط انجلترا وفرنسا على المقرى وزير حكومة المغرب الأقصى لما تمت هذه المحالفة فى شهر فبراير الماضى تلك المعاهدة التى خولت أسبانيا نفوذا جديدا فى منطقة الريف كما خولتها امتيازات وحقوقا جديدة من شأنها أن تجعل الجهات الشمالية من مراكش تحت سيطرة الأسبانيين .

لم يمض على هذه المعاهدة شهر حتى رأينا فرنسا ترسل جيوشها وأساطيلها إلى الدار البيضاء لتوطيد دعائم السكينة والسلام (كما تقول) والمحافظة على أموال وأرواح الأجانب فى مراكش ولتثبيت دعائم عرش السلطان عبد الحفيظ .

ولقد وقف وزير خارجية فرنسا إذ ذاك فى مجلس النواب وصرح بأن دخول الفرنسيين فى مراكش إنما هو تلبية لنداء الإنسانية وإجابة لما يتطلبه العدل والشرف وأنه لا يقصد به بأى حال من الأحوال انتقاص صروح مراكش والعدوان على استقلالها ، وإنما الغرض الفرد هو العمل على استتباب الأمن والسكينة فى ربوع تلك البلاد والمحافظة على المصالح الفرنسية والأجنبية .

رأينا ذلك العمل الغريب وعجبنا منه لمنافضته مناقضة صريحة لعقد الجزيرة ذلك العقد الذى ضمن كيان هذه الدولة المغربية . وتكفل بحماية استقلالها وحريتها .

ولكن الدول الغربية التى عودتنا إبرام معاهدات سرية بجانب المعاهدات العلنية ، قد أسرت معاهدات أخرى من شأنها تقسيم بلاد الإسلام فيما بينها ففرنسا وأسبانيا من جهة أبرمتا فى سنة ١٩٠٤ معاهدة سرية من مقتضاها تقسيم البلاد المراكشية إلى منطقتين إحداهما شمالية يمتد عليها ظل النفوذ الأسبانى والأخرى جنوبية تكون مقرا للنفوذ الفرنسى .

وكذلك أبرمت فرنسا وانجلترا معاهدة سنة ١٩٠٤ بها أطلقت انجلترا الحرية لفرنسا فى مراكش إلا أنها قيدتها بقيود تضمن عدم الاعتداء على المصالح الإنجليزية وعدم بناء قلاع وحصون على الشواطىء حتى لا يمكن الاعتداء على حرية التجارة والملاحة الإنجليزية .

استمرت فرنسا ترسل جنودها وتتوغل فى البلاد المراكشية فلم يرق ذلك الدولة الألمانية التى أرسلت مركبا حربيا إلى ثغر أجادير[1] بحجة أن مصالحها وزعاياها فى هذه الجهة أصبحت مهددة ولا بد لها من حمايتها . فدخلت المسألة المراكشية بذلك فى طور جديد لا سيما بعد أن أرسلت أسبانيا جنودها إلى القصر وتقدمت إلى الأمام معتدية بذلك (كما يقول الفرنسيون) على

---

(١) ورد فى النص (السكدير) وصحته أجادير . انظر « هذه مراكش » لعبد المجيد بن جلون ص ٧٠ .

منطقة النفوذ الفرنسى وقد أوشكت هذه الحالة أن تؤدى إلى حرب بين ألمانيا وأسبانيا من جهة ، وبين فرنسا وانجلترا من جهة أخرى .

إلا أن ساسة الإنجليز أخـــذوا يتهددون ويتوعدون ألمانيا فهدأت الحال على أثر ذلك وعادت المفاوضات بين ألمانيا وفرنسا إلى مجراها بعد أن قطعت مراراً عديدة وقد تمت هذه المفاوضات وأبرمت معاهدة بين ألمانيا وفرنسا من شأنها أن تجعل مراكش تحت حماية فرنسا على أن تأخذ جزءا من أملاك فرنسا فى الكونغو . والذى يستنتج من هذه المعاهدة ومن المخابرات السياسية التى دارت بشأنها أن الدول الغربية لا تظهر مساعدة لدولة إسلامية إلا إذا كانت ترمى لفائدة شخصية تستفيدها من هذا التظاهر .

وإن انجلترا وحدها هى التى كانت تسير الحكومة الفرنسية إبان هـــذه المخابرات لأن وزير خارجيتها صرح بما يفيد ذلك فى ٢٧ نوفمبر الماضى ، فانجلترا إذن هى السبب فى ضياع هذه المملكة الإسلامية ضياعا لا يمكن أن تقوم لها قائمة بعد ذلك إلا إذا عمل المراكشيون أنفسهم بعقولهم وأيديهم على الخلاص من الأسر الفرنسى . بيد أن المسألة المراكشية لم تنته حتى الآن ، لأن فرنسا وأسبانيا لم تتفقا بعد على تحديد منطقة نفوذ كل منهما ولكن لابد أن تتفق الدولتان عاجلا أو آجلا على اقتسام ذلك السلب الإسلامى العظيم ويقولون إن من المنتظر أن تطلب ألمانيا من أسبانيا عوضاً

عما ستأخذه على النمط الذى اتبعته مع فرنسا . ويغلب على الظن أن أسبانيا ستخضع فتجيب ألمانيا إلى مطالبها وسيكون ذلك فى غينية الأسبانية وبعض الجزر التابعة لأسبانيا ، هذه أول ضربة لحقت بالإسلام فى غضون العام الفارط .

وبينما كان الناس ينتظرون أن تكون هذه خاتمة مصائب الاسلام وإذا بإيطاليا انقضت على طرابلس الغرب باغية عادية قاصدة بذلك أن تسد قصبة التنفس الوحيدة الباقية للعالم الإسلامى بأفريقيا ومدفوعة إلى ذلك بيد الدول الغربية لأن فرنسا لاتريد أن ترى الهلال يخفق بجانب مستعمراتها الإسلامية فيستفز نفوس رعاياها المسلمين يوما ما إلى الخروج عن حكمها . كذلك انجلترا لا تأمن تركيا ما دام فى استطاعتها أن تضطرها بجنودها الشرقية والغربية إلى تحرير مصر والجلاء عنها . لهذه الأسباب عقد المسيو دلكاسيه فى سنة ١٩٠٢ معاهدة سرية بين فرنسا وإيطاليا كان الغرض منها عطاء طرابلس لإيطاليا مع حفظ الحق لفرنسا فى الاستيلاء على بعض الواحات العثمانية المجاورة لتونس والسودان الفرنسى . وكذلك عقدت انجلترا هى وإيطاليا معاهدة كان القصد منها إخراج تركيا من طرابلس واستيلاء إيطاليا عليها على أن تأخذ انجلترا بعض الثغور الحربية لتضيفه إلى الأملاك المصرية وقد بدأت انجلترا فى تنفيذ هـــذه الخطة فاستولت على ثغر السلوم ثم أخذت تساعد إيطاليا وتظاهرها ليتم لها ما اتفقتا عليه فى تلك

المعاهدة فجعلت تضيق الخناق على المجاهدين المساكين من أهل طرابلس أولئك الذين باغتهم إيطاليا فغزت بلادهم معتدية ظالمة لا تحترم عهداً ولا ترعى ذمة . على أن لانجلترا من وراء هذه المظاهرة مأرباً آخر أدق وأثمن من مجرد مساعدتها لدولة صليبية ضد الإسلام . ذلك أنها بذلك قد كادت تخرج إيطاليا من دائرة التحالف الثلاثى كى تضعف بذلك خصمها الغنى القوى (ألمانيا) فانجلترا بهذا العمل تصيد صيدين بسهم واحد ، تخرج إيطاليا من المحالفة الثلاثية لتضمها إلى الاتفاق الثلاثى وتضعف تركيا حتى تجتث نفوذها من أرض إفريقيا .

إلا أنها فى الحالة الأخيرة لا تريد أن تظهر حتى لا توغر صدور المسلمين الخاضعين لها لأن ذلك يدعو إلى قلق شديد واضطراب عظيم فى الأملاك الإنجليزية فى وقت ترى نفسها فى أشد الحاجة إلى معونتهم وولائهم ولا سيما فى الإمبراطورية الهندية أما الدول الأخرى ونريد بها ألمانيا والنمسا والروسيا فإنها لم تظهر أى رغبة فى مساعدة تركيا بل على النقيض من ذلك رأيناها ترفض التدخل بتاتاً بل قد نأخذ من جرائد إيطاليا ما يدلنا على أنهم يظاهرونها سراً بنفوذهم وتأييدهم . أما إذا نظرنا إلى عمل إيطاليا من حيث هو ، وجدناه لا يكاد يخرج عن أنه عمل وحشى بربرى أو أحط من ذلك فإنما هو مجموعة خسة ودناءة وانحطاط . أعلنت إيطاليا الحرب فى صورة مغايرة للقوانين والشرائع مغايرة للإنسانية

والعدل وأعلنتها فى صورة يعافها قطاع الطرق وقرصان البحار .

وادعت أنها ذاهبة إلى طرابلس لتمدين أهلها ولتنقذهم (كما تقول) من ربقة الذل والاستعباد ، ولما أن وصلت إلى هذه البلاد أخذت تدلس على الأهلين وتموه على العقول بتوزيع المنشورات التى حشتها آيات قرآنية لا تنطبق على المأرب الذى انتهكت فى سبيل الحصول عليه كل حرمة .

ادعت أنها رسول السلام وملاك الرحمة والعدل ، فأرتنا من آياتها ما تقشعر منه الأبدان وتشيب من هوله الولدان .

ذبحت الشيوخ وقتلت النساء وصلبت الأطفال فما كنت ترى إلا أجسادا منشورة وأوجها مشوهة وبطونا مبقورة وأذرعا مبتورة إلى نحو ذلك مما لا يطابق الإنسانية والعدل .

ورغما من تكالب الدول على تركيا ومساعدتها لإيطاليا تجد المجاهدين يدافعون عن بلادهم ويذودون عن وطنهم ويقاتلون لنصرة أمتهم ضد المغير عليهم وستكلل مقاومتهم بالنصر والظفر ما ثابروا على جهادهم وأمدهم العالم الاسلامى بالمئونة والزاد .

وعقدت انجلترا وروسيا محالفة فى سنة ١٩٠٧ من مقتضاها تقسيم البلاد الفارسية إلى ثلاث مناطق منطقة للنفوذ الروسى وأخرى

للنفوذ الإنجليزى وثالثة تبقى على الحيدة . وقد اتفقت انجلترا وروسيا بهذه المعاهدة على صيانة كيان فارس واستقلالها فى الظاهر وعلى تمزيقها فى الباطن على النمط الذى اتبع فى تمزيق بولونيا بين الدول الأوربية وقد انتهزت الدولتان فرصة الارتباك الدولى الحاضر فاعلنتا حربا شعواء على فارس فبدأت روسيا فى الصيف الماضى بأن أوعزت إلى الشاه المخلوع أن يغير على بلاده وأمدته بالأسلحة والجنود ومهدت له السبيل فوصل إلى البلاد الفارسية فى شهر يوليو الماضى .

إلا أن الفارسيين الذين اشتروا الدستور بدمائهم قد وقفوا فى وجه هذا المعتدى وأجلوه عن بلادهم فهاج ذلك العمل روسيا التى انتفخت أوداجها وورم أنفها وصممت على تنفيذ خطتها عنوة وقسرا . فلما حكمت المحاكم الفارسية بمصادرة أملاك أخى الشاه المخلوع لقيامه فى وجه الحكومة وأرادت أن تستولى على هذه الأملاك وقف أحد موظفى السفارة الروسية فى وجه الجندرمة الفارسية واعترض هذا التنفيذ وادعى أنه أهين من الجندرمة الفارسية وسرعان ما أرسلت الحكومة الروسية إنذارا نهائياً للحكومة الفارسية طلبت فيه ترضية بسبب هذه الإهانة . وقد كان أساس هذه الترضية نيل امتيازات ذات بال رفض منحها مجلس النواب الفارسى بكل شمم وإباء فوقع هذا الرفض على الحكومة الروسية

وقع الصاعقة فأرسلت جنودها إلى البلاد الفارسية وألحقت ذلك بإنذار ثان نهائى طلبت فيه من حكومة فارس :

(١) طرد المستر شوستر المستشار المالى الفارسى .

(٢) أن يعين المستشار المالى بعد أخذ رأى حكومتى روسيا وانجلترا كل منهما فيما يخصه .

(٣) دفع مصاريف الجنود .

(٤) تنفيذ ما جاء فى الإنذار الأول .

فرفض المجلس هذه المطالب مرة أخرى كما رفض ما جاء فى الإنذار الثانى .

إلا أن الوزارة قبلت هذه المطالب بعد إلحاح كبير من إنجلترا أما مسئولية انجلترا فى هذه الحوادث فعظيمة لأنها شريكة روسيا فى فعلتها ولقد صرح السير جراى بأنه لا يعارض روسيا فى أعمالها ولا يساعد فارس على روسيا ولكن إذا كانت الحكومة الفارسية قد رفضت هذه المطالب أولا ثم قبلتها مكرهة فإن الشعب الفارسى لم يقر الحكومة على ما قررته لأن ذلك تقويض لدعائم استقلال فارس وضياع لحريتها ولقد رأينا هذا الشعب المجيد يدافع عن بلاده بدمائه الغالية ورأينا المجتهدين من العلماء الفارسيين يحضون الأهالى على مقاطعة الروس ومقاومتهم بإصدارهم الفتاوى الشرعية ، فشعب هذه أعماله وميوله ، شعب هذه أخلاقه وسجاياه نرجو ونأمل أن

يكون لروسيا شجا دائما وغصة قاتلة وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

هذا ما كان من شأن البلاد الإسلامية المستقلة وهناك بلاد إسلامية أخرى مستقلة نوعا ما أو رازحة تحت نير الأجنبي قد نالها من المصائب فى هذا العام ما تكل منه الجبال الشامخة وأصابها من البلايا ما تقشعر منه أبدان الإنسانية ونزل بها من الويلات ما تبرأ منه المدنية كل ذلك من جراء المطامع الأشعبية للأمم الأجنبية التى لا تهدأ لها بل ولا يرتاح لها فؤاد إلا إذا عملت ليل نهار على العبث بالإسلام والمسلمين .

إن هذه الجائحات التى تجتاح المسلمين فى كل يوم يرجع السبب فيها إلى المسلمين أنفسهم الذين فرطوا فى حقوقهم فأضاعوا تراث آبائهم وأجدادهم هم الذين تحاسدوا وتخاذلوا فتفرقوا أيدى سبا ، وفشلت ريحهم وتمكن الأجنبي من تملك ناصيتهم والاستيلاء على بلادهم وهيهات أن تقوم لهم قائمة أو يستقيم بهم معوج اللهم إلا إذا اتحدوا قلبا وقالبا وعملوا يدا واحدة فى انتشال أنفسهم من هذه الوهدة السحيقة وأصبحوا أمام المطامع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

فعلى المسلمين اليوم واجب من أقدس الواجبات وفرض من أعظم الفروض ألا وهو الاتحاد والتضافر والتعاون على صيانة أنفسهم وبلادهم من طمع الطامعين وغدر الغادرين « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

الشيخ المبعد

هذا الدور هو آخر الأدوار فى التحدث عن الشيخ . وكأنى بلسان حاله يقول ما قاله الشاعر :

فما أنت يامصر دار الأديـ ــب وما أنت بالبلد الطيب

إن مصر أطيب البلاد فى نظر الشيخ ، ولذلك وهبها كل حياته وكل عيشه الرتيب ، وكل راحته وكل طمأنينته ، واستعذب فى سبيلها كل إعنات وظلم . ولكن غير الطيب فيها كما يترجم لسان حاله هو حكوماتها التى كانت تعادى الأحرار ، وتخلى منهم الديار .

كانت مصر فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، مثابة للأحرار السوريين ، الذين فروا من بلادهم إليها لاستبداد الحكومة التركية ، مثل رفيق العظم ، وعبد الرحمن الكواكبى ، فاستقبلتهم مصر استقبال المواطنين ، وأكرمت مثواهم ، وأنزلتهم منزلة خير أبنائها ، ولكن الأمر قد تغير وضعه ، وصارت مصر بعد سياسة (الوفاق) مع الإنجليز عدوة الأحرار ، فقد أبعد محمد فريد ، وأبعد عبد العزيز جاويش ، وكتمت أنفاس الحزب الوطنى ، حتى أن أمين الرافعى عطل جريدة الحزب بلا معطل سنة ١٩١٤ ، لأنه وجد البلاد منحدرة إلى الهاوية ، سواء بسبب إعلان الحماية عليها ، أو بسبب الرقابة

الخانقة المفروضة على الصحف ، وبالجملة فقد عصفت الاستبدادية بكل حرية .

فى هذا الجو الذى لا يطاق احتماله — تحرجت أحوال الشيخ أيما تحرج ، وضيقت الحكومة عليه المسالك ، وسدت فى وجهه كل باب ، ثم صارحته بأنها لا ترغب فى بقائه فى مصر وله أن يختار بلداً غيرها ، وإلا تصرفت هى فى نفيه وإبعاده عن البلاد ، فلم ير الشيخ إلا أن يريح ويستريح ، لم ير إلا أن يريح حكومة مستبدة ضاقت به ذرعا وأن يريح هو نفسه من العنت الذى يلاحقه منها فى كل وقت ومكان .

فارق الشيخ مصر هو وأولاده إلى تركيا التى اختارها بديلا عن وطنه ، وليس لدى مراجع أعرف منها شيئاً عنه بعد رحيله إلا التلخيص الذى أسلفته عن ولده (ناصر) مقدما به كتاب والده (الإسلام دين الفطرة) طبعة دار الهلال ، ومن هذا المرجع وحده يمكننى أن أرافق الشيخ فى بعض خطواته فى غربته

أبعد الشيخ سنة ١٩١٢ ، ولم يكد يصل إلى تركيا حتى بدأ أعماله فطورا يتزعم جماعة جمع التبرعات للجيش التركى فى حربه مع الطليان فى طرابلس الغرب ، ويرسل له الأسلحة والذخيرة ، وطوراً يسافر إلى انجلترا ، يتفق مع أحد أغنياء الهنود على إنشاء أسطول إسلامى ، وطوراً يتهم وهو فى انجلترا — بالتحريض على الاعتداء على الخديوى عباس الذى وقع له فى تركيا ، فيفر منها إلى باريس مخافة القبض عليه .

ومن أطواره العجيبة أنه اشترك اشتراكا فعليا فى حملة الجيش

التركى لتخليص مصر من الاحتلال الإنجليزى سنة ١٩١٥ ، هو ورجال الحزب الوطنى الذين فروا من استبداد الحكومة المصرية بعد إعلان الحرب سنة ١٩١٤ .

ومن أطواره وهو بألمانيا أنه سعى بواساطة من تعرف بهم من عظماء الألمان — فى أن يعترف مجلس (الريخستاغ) بأن مصر يجب أن تكون مستقلة ، وأن ينتهى احتلالها ، كما سعى هذا السعى نفسه وهو بتركيا ، فقرر مجلس (المبعوثان) حق مصر فى استقلالها .

هذه خلاصة عن أطواره السياسية فى غربته بالإيجاز .

* * *

أما أطواره الصحفية فكثيرة ، فقد أصدر المجلات المختلفة اللغات ، فى تركيا ، وفى ألمانيا ، وفى سويسرا ، بعضها دينى كمجلته (الهداية) فى مصر ، وبعضها سياسى للدفاع عن مصر وقضيتها ، وقد ذكر لنا ولده (ناصر) أسماء هذه المجلات فى سطوره التى لخص فيها حياة والده .

* * *

أما طوره العلمى فإنه أنشأ وأصلح فيه الجامعات العلمية ، فقد أنشأ الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة ، ووضع لها الأسس والمناهج ، وأصلح كلية صلاح الدين بالقـــدس ، وعهدت إليه إدارتها .

كان آخر أطوار حياته العلمية أن اختاره الغازى مصطفى كمال سنة ١٩٢٢ — رئيساً للجنة الشئون التأليفية الإسلامية بأنقرة ، وهو اختيار يدل على فائق التقدير للشيخ من رجل كمصطفى كمال الذى أبعد علماء الدين ، وعدهم أعداء النهضة التركية ، وسبب ما حل ببلاده من الكوارث فإذا عين هذا القائد الشيخ جاويش فى منصب دينى كالذى عينه فيه بعد ما وقع لرجال الدين الأتراك منه ، فإن ذلك لينطق بأقوى لسان على أن هذا الغازى يقدر الشيخ حق قدره ، ويعده صالحاً للتأليف الدينى .

* * *

أما مقام الشيخ فى غربته بصفة عامة فذلك مانعرفه من بعض فقرات لم أذكرها فيما سبق لى اختياره من خطابه الذى أرسله إلى الحكومة المصرية ، يخبرها فيه بعودته سراً إلى مصر فى ١٣ من ديسمبر سنة ١٩٢٣ ، وقد أثبت أكثر هذا الخطاب فى باب (الشيخ الأديب)

أما الفقرة التى تدل على مقام الشيخ فى غربته فهى :

«وإذا كنت أبيت أن أصافح الخديوى السابق أو ألاقيه فى ذلك العهد الرهيب (يريد عهده فى مصر) فهل يعقل أن أترامى على أعتابه أو ألتمس لقاءه خلال سنوات الحرب ، فى بلاد كنت فيها أنفذ منه أمراً ، وأرفع ذكراً » .

« رحم الله الشيخ عبد العزيز جاويش »

خاتمة ومقارنة

إن الذى يترجم للشيخ عبد العزيز جاويش — هو بلا ريب لا ينسى أن يحيي الأدباء الثائرين المصلحين أمثاله ، على تفاوت بينهم فى هذه الرابطة التى تنتظمهم جميعا ، وعلى تخالف القوم فى تقديرهم ، كما انتظمتهم البيئة التى أخرجتهم ، وهى بيئة المشايخ .

هؤلاء السادة هم : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، وعبد الرحمن الكواكبى ، والشيخ عبد العزيز جاويش .

هذه التحية هى أشبه بمقارنة بينهم فيما تخصصوا له فى حياتهم ، وهو الثورات والإصلاح .

اشترك هؤلاء السادة فى أن حياتهم كانت حياة متاعب وعناء ، واضطهاد ، ونفى وإبعاد ، وسجن ، فقد سجن جمال الدين حين قبض عليه فى طريقه إلى النفى ، وسجن محمد عبده فى أثناء محاكمته بعد الثورة العرابية ثم نفى ، وسجن عبد الله النديم نفسه فى اختفائه الذى طال عليه أمده ، وسجن عبد الرحمن الكواكبى فى بلده (حلب) لما قدم للمحاكمة بتهمة لفقت عليه ثم برئ منها ، وسجن عبد العزيز جاويش كما عرفنا من ترجمته .

***

إنهم جميعا ثائرون فى حياتهم على المظالم وفساد الحكم ، واستعباد الشعوب ، ولكن هذه الثورة تختلف باختلاف طباعهم وغرائزهم ، وظروفهم التى وجهتهم إلى الثورات

فلقد كان جمال الدين الأفغانى ثائرا من نوع عجيب ، وأتحدى وأنا واثق من أن هذا التحدى سليم ، أتحدى من يدلنى على موقف لهذا الرجل كان فيه هادئ الطبع غير ثائر ، إن الثورة كامنة فى نفسه الكبيرة إلى أن يمسها ماس من شئون الحياة التى خصص لها حياته كلها ، هنالك تفور وتغلى ، قوية عارمة ، لاهوادة فيها ولا إبطاء .

هو فى بلاده الأفغان فى ابتداء حياته — ثائر — ومحارب ومجاهد ، وذو رأى محترم . هو فى الهند ثائر يلقى على رجالاتها من ثورته ماغذى به النفوس ، وحرك القلوب .

هو على شاه إيران ثائر وليس بالقليل أن يقول له السلطان عبد الحميد فى أثناء حديث جرى بينهم . إن الشاه يخافك حقا ، فيجيبه بأنه قد عفى عنه لأجل خاطر السلطان ! !

هو فى مصر ثائر ، وبحسبه من ثورته فيها أن المؤرخين له أجمعوا على أنه هو الذى بذر بذور الثورة العرابية .

هو فى روسيا ثائر ، يخاطب كبيرا من علماء الإسلام هناك —

الشيخ رشيد التتارى بقوله : ياولد ، ستشهد زوال الإمبراطورية البريطانية ، وستصلى صلاة الجنازة على القيصرية الروسية .

ثم هو فى الآستانة ثائر ، يشتبك مع شيخ الإسلام هناك فى معارك علمية ، ويطلق فيه لسانه العضب ، ويدخل مع أبى الهدى الصيادى مستشار السلطان فى جولات ، ودفع اتهامات لفقها عليه هذا المستشار ، ومازال بها حتى فندها كل التفنيد ، وخرج من المعركة ظافرا منصورا .

إذن هو ثائر باستعداده الفطرى ، وقد اكتملت له أدوات الثورة كلها ، من نفس كبيرة لم تخضع لعظيم ، ومن لسان كالسيف القاطع يشق به أغلاف القلوب ، ومن عقل راجح سيطر به على كل شأن فأبدى فيه الرأى السليم ، وعلى كل عقدة فحلها بسرعة لا تخطر على بال ، حتى أنه لما لم تعجبه طريقة الماسون فى الابتعاد عن السياسة ، ثار عليها ثورته ، وسرعان ما ألف محفلا جديدا كان هو المتصرف فيه .

* * *

لكى نعرف اتجاه الشيخ الإمام محمد عبده فى ثورته — أقص عليك فحوى حديث جرى بينه وبين السيد جمال الدين الأفغانى لما ذهبا إلى باريس ليجاهدا كعادتهما فى الجهاد .

جلسا يتشاوران ، ماذا يصنعان . فكان رأى الإمام أنهما يذهبان إلى مكان بعيد غير خاضع لسلطان دولة تعرقل عملهما

وينشئان مدرسة للزعماء ، يختاران لها نجباء التلاميذ من الأقطار الإسلامية ، ويربيانهم على مناهج علمية قوية ، ويعدانهم للزعامة والإصلاح ، فلا تمض عشر سنين حتى يكون عندهما عديد من الذين يتبعونهما فى ترك أوطانهم ، والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب ، فينتشر أحسن انتشار .

لم يرض السيد بهذا الرأى ، وكان جوابه على اقتراح الشيخ : إنما أنت مثبط ، وقد تغلب رأى السيد على رأى الشيخ ، وأنشأت جريدة (العروة الوثقى) .

من فحوى هذا الحوار تعرف أن الإمام كان يريد أن يأتى الأمر من بابه ، وأن يدبر طائفة صالحة تقوم خير قيام بما تقوم به من كل أنواع الإصلاح ، لأن الشرق كله — ومنه مصر — خال من هذا النوع من مريدى الإصلاح عن علم وبينة .

إذن كانت ثورة الإمام فى السياسة والاجتماع والدين وإصلاح اللغة العربية — ثورة هادئة ، لا يركب فيها الطائرة مثل ما كان يركب جمال الدين ، ولا تكيف ثورته السرعة الخارقة للعادة التى كانت تكيف ثورة جمال الدين .

لمحمد عبده مواقف ثائرة مثل ثورة أستاذه السيد . مثل قوله :

« دعوناها (الأمة) إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده

عن الخطأ ، ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل».

جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس عبيد له أى عبيد » .

هذا الثائر هو الذى كاد يدركه اليأس من أن يرى سعيه يتحقق فى أيامه ، ويرى نتائجه رأى العين .

ولذلك قال فى موضع آخر :

« أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأننى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمه من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنون الطوال ، فهذا الغراس هو الذى يجب أن يعنى به الآن ، والله المستعان » .

فالشيخ قد ثار فى مواقف كثيرة كما ثار السيد ولكنه رجع إلى قاعدته التى اقتنع بصحتها كل الاقتناع من أن الإصلاح غراس يغرس تقوم على تنميته السنوات الطوال ولذلك تخصص فى أخريات أيامه للغرس الصالح ، فأفاض على الناس من دروسه وعلمه ما اعتقد أنه هو ذلك الغراس الطيب الذى سينمو على مر الأيام ، فيكثر الإصلاح والمصلحون .

***

كان النديم كاتب الثورة العرابية وخطيبها ، قواها بقلمه ولسانه لما كانت ثورة نفسية . وقواها كذلك لما كانت ثورة فعلية ، قواها

بجريدته ولسانه فى ميادين القتال ، ورافق الجنود بين قصف المدافع ولمعان السيوف . وكان قبل ذلك — وبعد ذلك أيضاً — ثائراً على العادات الاجتماعية يهز من كيانها ، وينقض من بنائها ، فهو الثائر طول حياته ، إلى أن أدركته الوفاة .

كان ملتزما فى الثورة طريقة تقوية العزائم ولو بخياله الخصيب وقد حدثنا عنه الأستاذ فتحى زغلول لما كان طالبا بمدرسة رأس التين بالإسكندرية . فقد روى أنه سمع عبد الله نديم وهو يخطب الجماهير بما فحواه أنه إذا أطلقت مدافعنا على جزيرة (قبرص) فإنها تصيبها ، وإذا أطلقت مدافع الأتراك فإنها تصيبها كذلك ، فالأسطول الإنجليزى تحت رحمة مدافعنا ومدافع الأتراك إذا حاول دخول قلاع الإسكندرية . . وقد حدثنا بذلك السيد رشيد رضا فى الجزء الأول من كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام) .

***

الكواكبى لم يكن كالأفغانى ثائراً ثورة باطنة وظاهرة ، وإنما كانت ثورته باطنة تنتج القول الملتهب ، ولكن فى سكون ، وتصف لك القواصف النازلة على رءوس الشرق ، ولكن فى هدوء وهو فى ذلك كخرير الماء يعمل فى بطء حتى يفتت الصخر . وإن الرجل الذى يقول فى ابتداء كتابه (طبائع الاستبداد) « هذه صيحة فى واد أن ذهبت اليوم مع الريح فستذهب غدا بالأوتاد ! » هو فى ذلك يشبه الشيخ محمد عبده كل الشبه فى العمل المتصل بهدوء وتأن

يقول القول و يتركه يؤثر فى النفوس أثره مادون عجلة أو إسراع .

وخلاصة القول فى هذا الرجل أنه طيب حاذق ، يفحص المرض فى هدوء ، ويصف الدواء فى أناة ، وقد وضح لنا ذلك فى كتابيه الخالدين ، اللذين يجب أن يقرأهما شباب هذا الجيل ، لينتفعوا بما دونه أسلافهم وقضوا فيه أعمارهم .

عبد العزيز جاويش :

كان هذا الرجل ثائراً فى كل مراحل حياته ، ثائراً على طرق التعليم وهو لايزال مفتشاً بوزارة المعارف ، فوضع كتابه فى التربية والتعليم (غنية المؤدبين) الذى هو الكتاب الأول فى نوعه . وإذا سميت وضع هذا الكتاب ثورة فلأنه أصلح به فاسدا ، ووضع للتربية منهاجا جديدا ، وقد سبقنى إلى ذلك الدكتور أحمد أمين لما وصف كتاب على مبارك فى تعليم الهجاء ورسم الحروف بأنه ثورة

انتقل الشيخ من الوظائف إلى العمل الحر الكتابى والخطابى فكان ثائراً كل الثورة وربما يعرف أن مقالا سيكتبه يدخله السجن ولكنه يكتبه ، وإن خطبة سيضطهد بسببها ولكنه يخطبها ، نارى القلم ، جرىء القلب ، سليم الطوية إلى ما تتحمله كلمة (السلامة) من معان .

كتب وخطب ، وابتعد عن البلاد ، وذاق الأمرين فى اغترابه ولكن ذلك لم يخفف من ثورته شيئاً . وهذا مقاله الذى استقبل به

ومه ووطنه – وقد أسلفته – خير شاهد على أن ثورة الشيخ لم تفارقه حتى الممات .

حدثني مدرسي – رحمه الله – أن الشيخ ذهب إلى مدرسته وهو مراقب التعليم الأولى بوزارة المعارف . ويظهر أن الشيخ قد لاحظ بعض التقصير من هذا المدرس فى أنه لم يأخذ بارشاداته التى أرسلها إلى المدارس ، فجمع المدرسين وقت فسحة التلاميذ ، وصاح فيهم قائلا : إنى لا أعاقب أحدا منكم ولكننى أنصحكم باتباع إرشاداتى بكل دقة ، ولقد صحت فى وزارة المعارف منذ أيام أمام وكيل الوزارة بأن مشروعى فى التعليم الأولى إذا لم تنفذه الوزارة كما وضعته فإننى أنفذه ولو بالسيف .

ولا ريب أن استعمال كلمة السيف فى مثل هذه الأمور ليدل على شجاعة قلب ، وصفاء طوية . إنه يشبه إلى حد كبير جمال الدين الأفغانى فى حدته الثورية وإرشاداته الإصلاحية .

((مراجع البحث))

١ — غنية المؤدبين
٢ — مرشد المترجم
٣ — الإسلام دين الفطرة
٤ — مجلة الهداية
(للشيخ عبد العزيز جاويش)

٥ — محمد فريد ، للأستاذ عبد الرحمن الرافعى

٦ — تاريخ الأستاذ الإمام ، للسيد رشيد رضا

٧ — وطنيتى ، للأستاذ على الغاياتى (طبعة سنة ١٩٤٧)

٨ — حاضر العالم الإسلامى (تعليقات الأمير شكيب أرسلان على الكتاب)

٩ — تكوين الصحف المصرية ، قسطاكى إلياس عطاره

١٠ — أعمالى بعد أقوالى ، لأحمد شفيق (باشا)

١١ — مجموعة خطب نادى دار العلوم سنة ١٣٢٦ هجرية

١٢ — على هامش السياسة للدكتور حافظ عفيفى

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الشيخ في عصره	٨
أخلاق الشيخ	١١
الشيخ المربي المدرس	١٥
الشيخ الأديب	٤٧
الشيخ العالم المصلح	٥٨
الشيخ المجاهد	٧٣
الشيخ المبعد	١٠٨
خاتمة ومقارنة	١١٢

القـــاهرة
مطابع دار الكتاب العربى بمصر
محمد حلمى المنياوى

